سـفـارة الفـكر والادب

بقلم وداد سكاكيني

* * *

يتميز عصرنا الحضاري والفكري الذي نعيش في اطواره التحررية وتياراته المتضاربة ، بتلاقي الشرق مع الغرب ، وتمازج الثقافة بينهما على اختلاف الوانها وفنونها ، ولا ريب في ان رواد التطور والتجديد في نهضتنا قد سبقوا الى سفارة في الادب والتدريس والصحافة قبل السفارة الدبلوماسية سواء منهم الذين كتبوا بلغات الغرب شعرا ونثرا ، ام الذين علموا العربية في جامعاته ومعاهده أو نقلوا لقراء الفرنجة روائع من تراث العربية واصولها ، كما صنع امين الريحاني في نقل غرر من ادب المعري في لزومياته من لغتها الى الانكليزية ، ومثلما كتب جبران خليل جبران بهذه اللغة نفسها بعض مؤلفاته ، فكان ابداعه فيها سبيلا لشهرته العالمية ، ولاتزال بعض المواهب العربية وبخاصة اللبنانية تفيض نبوغا وفنا في لغات الغرب ، ويقرأ الناس آثارها متشوقين الى مطالع الشرق وفتون طبيعته وملامحه منذ عرفوه في « الف ليلة وليلة » .

وكان للمستشرقين من العلماء والمفكرين بوادر الفضل والسبق في نقل التراث العربي الى لغاتهم مع صعوبة اللغة العربية التي تعلموها بدأب وشوق ، ولم يتقن اكثرهم نطق الفاظها والتغلغل في اسرارها وبلاغتها، وان عاشوا بين اهلها ، لكنهم تفوقوا بالدراسة المنهجية والخطة العلمية ، وكان « كارادوفو » في مجلداته « مفكرو الاسلام » من اسبق الفاتحين لهذا الباب .

وقد غاب منذ قريب عن عالم الفكر والتراث المستعرب الكبير « ماسينيون » ، الذي نقل الى لغته الفرنسية آثار التصوف الاسلامي ، ووقف عمره وعلمه في التأليف والتحقيق على الدراسات المتعلقة بهذا التصوف ، مثلما عرفته الجامعات الغربية والعربية ومجامع اللغة محاضرا ومشاركا في البحوث الشائكة عن طوائف متطرفة او متصوفة .

ولو عدنا الى تاريخ التلاقي الفكري والثقافي بين الشرق والغرب لتلمسنا في تضاعيفه تأثير ادبنا في ادب الغرب ، وقد تناوله بالتفصيل كثير من المستعربين في دراساتهم ومؤلفاتهم ، وفي كتاب المؤلف البحاثة « روم لاندو » صفحات مشرقة ، شرح فيها دور العرب في الحضارة ، مؤيدا اثر ادبهم القديم في ادب الغرب وثقافته ولا ابعد في التقصي والتأويل لأشير من قريب ومن بعيد الى الاقتباس والمحاكاة فيما وجدنا من الصور والقيم الانسانية العربية في آثار كثير من الروائع العالمية ، وفي اعقاب العصر الغابر كان للبعثات العلمية والقنصلية في بعض آفاقنا وعواصمنا دور كبير قام به رجالها ونساؤها على مسرح السياسة والمدرسة ، فقد اهتم بعضهم بنقل التراث الاسلامي والعربي الى بلادهم وخزائن كتبهم والتطواف في بلاد الشرق لجمع المخطوطات والذخائر الفنية والوثائق التاريخية ثم حشدها في مكتبات الغرب ومتاحفه ، ولان لأدباء الغرب الجوالين رفد ملحوظ لهذه الامور التي كانت منابتها في ارضنا وديارنا ، فقد وفدوا عليها تواقين الى تفهم حياتها وحضارتها القديمة والحديثة ثم عادوا بانطباعاتهم وذكرياتهم التي فتحت لهم منافذ واسعة في ادب بلادهم وامجادها ، وكان من هؤلاء المستطلعين « دور جليس » الذي الهمته دمشق روايته المشهورة « قافلة بفير جمال » ، والكاتب « بيير لوتي » الذي خدم البحرية في بلاده وعاش مدة على ضفاف البوسفور حيث استوحى صورا شرقية لقصصه ورحلاته ومن عجب ان لا يلحظ ادباء العرب ما لاحظ الروائي الاديب « شبنكلر » الذي قال : ان المساجد الاسلامية ابت في حضارتها الا أن تلبس على رأسها رداء البداوة ، فكانت لها قباب تشبه الخيام ...

هذا وصف دقيق جاء به كاتب من الغرب مشهور ، فكيف فات ادباءنا هذا التشبيه الذي بادر اليه الغريب بينما نجد في تاريخ ادبنا ان النابغة الذبياني كانت تنصب له قبة من أدم في سوق عكاظ فيجلس تحتها للتحكيم بين الشعراء وتبيان اقدارهم وخصائصهم في نقد شعرهم وتقويمه .

فالفكر والادب في السفارات العربية والاجنبية قديما وحديثا رفدا كل وعي وتطور في الحياة والمجتمع ، وفي شتى الصلات والمؤثرات التي لم تنقطع منذ القرن السابع عشر حتى عصرنا الذي تجددت فيه الروابط واشتدت ، وان تكن المنازع العلمية والمادية شاءت ان تقلل من شأن الادب ، وهي تعلم انه أحتوى قيم الآثار الانسانية والوطنية ، ولولاه لبقيت مهملة جامدة لا تدخل البحث والتاريخ ، بل لولا سفارته وعنايته بشؤون الوعي والتطور في هبات العرب للحرية والسيادة القومية لما تجاوبت صيحات الرواد في هذا المجال ، وبخاصة بعد جلاء الحكم العثماني الغاشم عن بلادهم واقتحام الاجنبي عزتها في استقلالها غصبا وبأشتات الاسماء والاسباب ، فالفكر العربي الحديث والادب الصادق كانا وراء كل حركة ثورية او انتفاضة متجددة متوثبة للنضال والكفاح ، وكأن القدر قد رصد لانبعاث الامة العربية وتحريرها مما عوق نهضتها وسيادتها اقلاما ومنابر تهتف للهبة الكبرى والوعي الشامل ، على ان تستعد وتتزود بالتعليم والتربية ومقومات الحياة البانية العادلة ، فكانت سفارة الفكر والادب في النصف الاول من هذا القرن حافز التلاقي والتجاوب في القريب

والبعيد ، وفي شتى المحن والخطوب التي اصابت البلاد العربية من جراء التخلف والاستعمار ، وقد شدت هذه السفارة باقلامها الحرة وصحافتها الادبية الاواصر والعلاقات بين الجيران والاخوان ، وكان التاريخ واللغة والعقيدة عماد هذا التجاوب الروحي في ارجاء العرب لجمع شملهم وتسديد خطاهم بعد ان كان التلاقي في البحوث والدراسات مقصورا على المختصين والمستشرقين وقد غدا القارىء العربي الحديث تواقا للوقوف على احدث ما ابدعت المواهب العربية والغربية ، بل لم يكن هذا جديدا ، فان رواد الفكر العربي المعاصر واعلام التجديد والنقد قد بذلوا اضخم الجهود في تآليفهم وآثارهم او في ترجمة الروائع العالمية عن لغاتها ومصادرها ، ومنهم من وصلت مؤلفاته الى الغرب في تطلعه الى نتاجنا الحديث ، فكان الادب بانسانيته وروعته سبب الوصول والانطلاق .

ومما يحمد لنخبة من ادبائنا المتفوقين والسابقين تلفت العالم لادبنا الحديث فيما الفوا وقدموا من كتب قيمة نقل اكثرها لعدة لغات ، لكنها للدسيسة العنصرية والصهيونية لم تلق جوائز المجامع الغربية الكبرى التي تدعي انها انسانية عالمية في المكافاة والتقدير .

وكانت العبرة الاخيرة فيما منحت «نوبل» في العام الماضي يهوديين من اسرائيل والمانيا كافاتهما بجائزتها ، لان ادبهما جاء معبرا عن هدف الصهيونية وفي نطاق تعاليمها الدينية وباللغة العبرية فدلت هذه الجائزة المرصودة لغير غايتها على الحكر والتحيز ، وايدت حجة الادباء العرب فيما رددوا بمقالاتهم عن جائزة نوبل وكيف يحولها التعصب والتعسف الى مغمورين ضعاف في ادبهم وآثارهم ، او الى مشهورين يتملقهم ويستهويهم ، فهل تكون هذه المغالطة التقديرية حافزا جديا لمضاعفة الجهود العربية في التعريف بأدبائنا الموهوبين المتمكنين ومؤلفاتهم القيمة ، ولعل السفارة الفكرية والدبلوماسية تقوم بهذه المهمة في الآفاق الغربية ، وبخاصة اذا كان ممثلوها من ذوي المعرفة والبيان ، وقد عرفنا منهم شعراء وكتابا لم تتبين لاكثرهم مشاركة ضئيلة او جزيلة في هذا الامر .

ولئن رددت القول الى ما قرات في مختارات الدبلوماسي السابق الاستاذ جمال الفرا لشعر السويديين وكبير شعرائهم ، فاني كنت اتمنى بدلا من نقله نماذج ومنتخبات الى لغتنا ، ان لو صنع سفيرنا المفكر عكس ذلك ، فعرف المثقفين هنالك والمسؤولين ببعض المؤلفات العربية التي تقف جنبا الى جنب امام مؤلفات الذين حازوا جائزة نوبل في الآداب ، وقد عاش الاستاذ الفرا مدة في بلد هذه الجائزة واكاديميتها ذات الحق في التقدير والتكريم .

الم يكن الاجمل والافضل ان يصطنع السوانح ويبادر الى الكتابة والمحاضرة ، وهو القدير فيها فيسبق انداده الى السفارة الفكرية العربية ويؤدي فيها رسالة جديدة للتعريف جهده بنوابغ الفكر والادب في مصر ولبنان وبعض البلاد العربية من الذين طال جهادهم في التأليف والنقد وقدموا كتبا صادقة الشعور والتعبير قرأها الناس في الشرق والغرب معجبين بموضوعاتها الاقليمية والعالمية

اما « مختارات » الاستاذ الفرا لكبير الشعراء السويديين فقد زادتنا دلالة على ان ادب تلك البلاد الثلجية النائية تغمره البرودة والسطحية ، لكن سفيرنا السابق كفانا التعليق عليها بقوله : ان للسويد من صناعاتها الالكترونية ما يغنيها عن نظم القريض ...

واما النثر الذي اعجبه في ادب تلك البلاد الشمالية فكان برأيه متمثلا في رواية الكاتبة السويدية « سلما لاغرلوف » وربما قرب ادبها الى نفسه كما قال هو انها حازت جائزة نوبل في الآداب ، فكانت بحسبانه المرأة الاولى والوحيدة التي حصلت على هذه المكافأة السخية ، وقد عد روايتها من الآداب العالمية ، لكن الاستاذ الفرا رجع اليها بعد سنين وزار « فيرملاند » التي جعلتها اطارا لأكثر صورها وحوادثها ، ففوجيء وهو يقرأ الصفحات الاولى بان الرواية لا تثير اعجابه هذه المرة ، فأغلق الكتاب قانعا باطلاعه الاول على الطبعة الاولى ، على ان السفير السابق قال انه لا يدري اذا كان كر السنين هو الذي بدل مقاييسه واحساسه او ان ذوقه الفني ونضجه الفكري هما اللذان غيرا رايه الاول ؟

اما قوله بأن « سلما لاغرلوف » هي الاولى والوحيدة التي حازت جائزة نوبل في الآداب فينفيه الواقع اذ ان اللواتي اخذنها كن اربع اديبات ظفرن بهذه الجائزة العالمية وهن السويدية لاغرلوف والايطالية « جرازياديلادا » والاميركية « بيرل بك » المشهورة ، والنروجية « سيغريد اندسيت» والاستاذ الفرا مشكور فيما كتب عن ادب السويد فلا اتجنى عليه او اتحيف اختياره ، لكني ذكرته بصدد الامال المعقودة على سفراء الفكر والادب ممن اتقنوا اللغات الاجنبية والدبلوماسية ، فهؤلاء ترتجى منهم المشاركة في التعريف بأحسن ما في ادب بلادهم وتراثها وفنونها ، لعل المعنيين بهذا الشأن ان يخففوا من تغاضيهم عنا وتجاهلهم ما وصل الى بلادهم ومكتباتها من نتاج ادبائنا المعاصرين الذين نقلت آثارهم الى كثير من لغات الفرنجة وفيهم من يستحق جائزة نوبل التي لم يذق طعمها اديب عربي حتى هذا العام ، واما الذي ترجم من الكتب العربية التافهة الى الاجنبية فقد ادخل الضيم على ادبنا عند الغرباء .

ومهما تكن الدسيسة والضغينة في تنقص المؤلفات العربية المأثورة وادعاء الاعداء بأنها لا ترقى الى مصاف الآثار الفكرية والادبية التى حازت تلك الجائزة ، فان نقل ما يدور حول هذا الموضوع ينبغي ان يتردد في صحافة الغرب وثقافته ، وان يتصدى للتحاور فيه متمرسون بالادب واللغات وصداقة المفكرين في البلاد التي عاشوا

الروضة التي عشقتها

الى الحالمين بالسعادة الغارقين في الخيال

* * *

لي روضة كنت اغني حولها — مزدانة بالزهر والقطوف
اهيم ما بين رياحين بها — نشوان من عبيرها اللطيف
خمر فلا لون ولا طعم لها — لكنها تستاف بالانوف
فتنت في طروقها كل ضحى — وطالما طال بها وقوفي
اما الفراشات على اوراقها — عند الضحى تعد بالالوف
اهرع في النهار والليل لها — وارتمي في ظلها الوريف
انقل الطرف فتأتيني الرؤى — مسحورة الخيال والطيوف
من كل عذراء خيال ترتمي — في افق احلامي بلا شغوف
تلهمني الشعر فاشدو بالمنى — وحدي بلا كاس ولا اليف

وذات يوم جئت مشتاقا لها — هيمان مثل العاشق اللهيف
فهز اعماقي وادمى خاطري — رأى احتضار زهرها الرهيف
وقفت استفسر عن ذبولها — في حسرات الثاكل الاسيف
وبعدما صعدت انفاسي بها — عرفت اني جئت في الخريف!!

بمباي — الهند — احمد محمد الخليفة

او يعيشون فيها ، وعلى الدأب في هذه التوجيه والتعريف يخف ضغط الناقمين والمتربصين لآثارنا في موضوعاتها الانسانية والحضارية .

ومن يدري فربما منح جائزة نوبل احد الافذاذ العرب من المفكرين والادباء فبدا له ان يردها كما ردها سارتر او تحظى الاكاديمية السويدية مفمورا من الكتاب والشعراء، وفي هذا الامر اشارة الى انها عالمة بأدبنا الحديث او مصرة على التحدي ، وهي في الحقيقة غير جاهلة او غافلة عن شكوى العالم واتهامه اللجنة الحاكمة باهمال العرب الذين خلدوا تراث الانسانية وشاركوا في بناء حضارتها وقد اعترف لهم بالفضل والسبق اعلام الفكر والحرية والمعرفة في قديم الغرب وحديثه ، وان العرب لا يزالون يمدون التراث بآثارهم العالمية التي فرضت وجودها وقيمتها على قلتها باللغات الاجنبية ، وقد شاع ذكرها وموضوعها في ادب العالم وعاش عليها جيل بعد جيل .

ومهما يكن الامر ، فان السفارة العربية بالفكر والادب والصداقة والدبلوماسية في آفاق الغرب وعواصمه ومعاهده مدعوة للمشاركة قدر الطاقة والسانحة في هذه القضية التي تخوض الاقلام العربية في ملابساتها وما يدور حولها كلما منحت جائزة نوبل لاديب كبير او خامل مغمور ، وبوسع هيئة الامم التي أنشئت لخير الانسانية والحضارة ان تنشيء جائزة عالمية لنوابغ الشرق والغرب على السواء ، فقد تستمد وهي في حيرتها السياسية من الفكر والادب قوة وسدادا ، ولعل جامعة الدول العربية تبادر الى رصد جائزة كبرى لمن تراه جديرا بها من ذوي النتاج الفكري والادبي الذي يحتوي الشروط والقيم وتحقيق الهدف في بلادها المتطلعة الى العدل والانصاف .

دمشق — وداد سكاكيني

أضواء على الاسلوب الادبي

بقلم حسني سيد لبيب

* * *

قديما قالوا « الاسلوب هو الرجل » .. اي ان كل كاتب له اسلوب يتميز به عن غيره ، وذلك لامر بديهي وبسيط ، وقد يتطرق بنا الحديث – في البداية – في علم النفس وربما علم الاجتماع ايضا ، حتى نقوم بتفسير تلك العبارة ذات الايحاء القوي ، والايجاز البليغ تفسيرا صحيحا .

ان كل كاتب – واي انسان – يخضع لعوامل نفسية تختلف اختلافا بينا عن تلك التي يخضع لها كاتب غيره . ومن ثم تكون له تلك العوامل النفسية صورة مستقلة خاصة به ، أضف الى ذلك تأثير البيئة على الفرد ، وكذلك التكوين الاجتماعي لاسرته .. كل تلك المؤثرات تجعل الكتاب يختلفون ليس فقط في الاسلوب الادبي ، ولكن في طريقة التفكير ذاتها ، اذا نحن ادخلنا عامل الثقافة وتنوعها .

ولست ادعي اني سأضيف جديدا في امر الاسلوب الادبي ، لانه موضوع قديم ، علاوة على « كلاسيكيته » وعدم مرونته اذا نحن طرحناه كقضية ادبية ذات بال . ولكن قد يكون هناك جديد مفيد ، اذا نحن اطلعنا على قول الاستاذ عادل كامل بان « الاسلوب فكرة قبل ان يكون لفظا » (1) . وبرغم انه قد مضى عليها غير قليل من السنين ، الا انها تعكس مفهوما تقدميا . فليس الاسلوب مقصودا لذاته ، وانما يأخذ صورته الشكلية من الفكرة التي يتضمنها . وقد يختلف اسلوب كاتب ما من موضوع لآخر ، لكنه اختلاف هين يسير ، لان هوى الكاتب في اطاره الشامل قد يتغلب على موضوعية التفكير . وبذلك نستطيع – ولو انها استطاعة محدودة – ان نتعرف على الكاتب من اسلوبه . واذا افترضنا صحة هذا الزعم ، ثم حاولنا ان نفسر هذه الصحة ومنشأها فلن نجد تناقضا بين ان يكون للكاتب اسلوب متميز وبين القول الذي أثبتناه بأن الاسلوب فكرة قبل ان يكون لفظا .

فأسلوب الكاتب يتحدد من طريقة تفكيره ، اي انتظام الموضوع في ذهنه . وهذا التحديد يأتي في تسلسل منطقي ، ويخضع – كما قلت آنفا – للعوامل النفسية والبيئية والاجتماعية والثقافية . وقلما يشذ الكاتب على هذا التسلسل المنطقي الذي يدخل في اطار طبائع الانسان ، والانسان يصعب عليه تغيير طبعه الا بتقادم السنين ، التي تضيف الى تلك المكونات لشخصيته ، بعدا آخر هو الخبرة التي تأتي بتقادم الزمن ، وما في ذلك من مران ومحاولة لتغيير المفاهيم التي وعاها كحقيقة ثابتة .

وعلى هذا ، فان طريقة التفكير ذاتها تحدد اسلوبا بعينه يميز شخصية الكاتب ويبرز ملامحها . واذا حاولت ان اوجز هذا التحليل ، استطيع ان اضع حقيقة اخرى لا مجال للشك في صحتها ، واظننا جميعا متفقين على تلك الصحة .. وهي ان الالفاظ لا تجري على اللسان او تتطرق الى الذهن ، الا لفكرة تريد ان تخرج .. فكرة تولد في الذهن ، ووسيلة اخراجها هي التعبير . والتعبير في حاجة ملحة الى اداة تعطيه الصور الحسية الملموسة ... تلك الاداة هي اللفظ .

فالفكرة تولد في نطاق الذات ولا تتعداها .. ثم يستظهرها اللفظ صورة واضحة بينة للاخرين . والاسلوب ما هو الا مجموعة كلمات تتركب في صورة معينة لتكون جملا .. ومن مجموع الجمل تتكون الفقرات التي تكون اعمدة بارزة للموضوع المطروق . وهذا التركيب يختلف من انسان لاخر – كما قلت – حسب طريقة تفكيره ، وتسلسل تلك الافكار في مخيلته . ومن ثم فليس هناك اي تناقض بين ان يكون للكاتب اسلوب يميزه ، وبين ان تكون الفكرة سابقة على اللفظ .

لست احاول تقديم جديد في هذا المضمار ، لان الموضوع الذي اعالجه – كما قلت – موضوع قديم ، وقد عولج من قبل مرارا . وربما في هذه الفترة من حياتنا الادبية ، قد تخلصنا من اسار اللفظ ، وتعديناه الى الجوهر الاصيل وهو الفكرة .. وبالفكرة وحدها يكون ادبنا حيا ، ثم يأتي اللفظ – كوسيلة فقط – للتعبير عن افكارنا الادبية .

والذي اعنيه بهذا المقال ، هو التوكيد على ان الفكرة وحدها هي التي تقيم اساسا متينا للادب الحي الذي يكتب له الخلود . ويدفعني هذا التوكيد الى دعوة الادباء الى نبذ الشكل اللفظي والتحرر منه ، وان يكون همهم الاول هو المضمون والفكرة الحية .

ولكن اهتمامنا بالمضمون لا يجب ان يصرفنا عن صحة الاسلوب التي لا بد منها لكل من يمارس الكتابة ، ولايمكن ان تخلق فكرة جيدة بأسلوب مهلهل سقيم .

ان سلامة اللغة ، وصحة الاسلوب ، هما البداية الحقيقية للاديب الفنان .. ليس هذا فحسب ، وانما استطرد بحديثي الى موضوع اخر هو الصدق الفني ، وهو موضوع طويل لست ابغي الخوض فيه في هذا المقال ، وانما الذي يعنيني منه هو علاقة هذا الصدق الفني بأسلوب الكاتب . فكلما كان الكاتب صادقا صدقا فنيا – وهو غير الصدق المطلق – مع فكرته ، ومخلصا لها ،

كان له اسلوب واضح جميل . فالاخلاص مولد فعلي للاسلوب الجيد ، وقد يشمل من المحسنات البديعية والعبارات الرشيقة الموحية ، ما نقدر على تذوقه واستيعابه وما يكون اشبه بسيمفونية موسيقية حالمة تشبع النفس بروحها الخلاقة . ويكون ذلك الاسلوب اعظم قدرا واسمى منزلة من ذاك الذي يعمد كاتبه الى الشكل الادبي ويركز فيه كل طاقاته ، التي لا شك تتبدد في غير موضعها ، ولا يتبقى له من الطاقة ما يستطيع بذله في التفكير الحي الخلاق الا النذر اليسير الذي قد يغنينا عن موضوعه كلية ، ونفضل معه الراحة والهدوء .

بقيت لنا في الاسلوب الادبي ما يسمى بعناصره . والحديث عن عناصر الاسلوب ليس الا استطرادا ، واستيفاء للموضوع من جميع جوانبه . والذي يهمنا من تلك العناصر هو علاقتها بالكاتب ، فهل يضع الكاتب لاسلوبه عناصر معينة والتي حددها البعض وحصرها في ثلاثة هي : اختيار اللفظ وصياغته وموسيقى العبارة ؟

لا سلطان على الكاتب الا سلطان الفكرة ، او قل التفكير المبدع الخلاق . وبرغم ان طريقة تفكيره تكون ذات ايحاء لفظي ، فان الاسلوب يتحدد في ذهنه حسب تناسق التفكير . ويكون لكل كاتب اسلوب ، هذا الاسلوب لايحدده قبل الكتابة وانما يصير مكملا لشخصيته . وعلى النقاد فحص نصوصه الادبية واستظهار خصائص اسلوبه، والتي لم يكن يفكر فيها قط .. « ونحن لا نستطيع تحديد شخصية الاديب تحديدا واضحا بعد فترة ما من ظهوره الادبي .. ولكننا قد نحتاج الى فترة طويلة يكون الاديب خلالها قد وضع من المؤلفات الادبية ما يشبع الدارس له » (٢) .

وسأحاول ــ قدر جهدي ــ ان اتحدث عن عناصر الاسلوب الادبي ، محللا كل عنصر .. ومدى تقيد الكاتب به ، او مدى التزامه بخصائص معينة في كتاباته .

فعن اختيار الالفاظ ، فما احسب كاتبا مبدعا سيجعل من اختيار اللفظ شيئا ذا بال . وانما اللفظ الحسن يفرض نفسه تبعا لذوق الكاتب ومدى فهمه لاسرار اللغة ومواطن الجمال فيها . فاللفظ المناسب ، ينساب في سهولة ويسر ويفرض نفسه دون عناء لغوي .

وهنالك عنصر مهم من عناصر الاسلوب ، هو صياغته ، فلا شك ان طريقة الصياغة الادبية تحدد نوع الاسلوب . كما ترتبط الصياغة بعمق الفكرة واصالتها واهميتها . فعمق الفكرة قد يضطر كاتبا الى التفسير وتتبع جزئيات الحدث اوالموضوع في سبيل الوصول الى هدفه الكلي الناتج عن تجميع تلك الجزئيات وارتباطها ببعضها .

ونستطيع وصف تلك الصياغة بالاستطراد . وقد يدفع العمق ذاته كاتبا اخر الى ان يوجز التعبير مع القدرة في اختيار الالفاظ الموحية التي تغني عن سطور كثيرة مملة ، وهي ما تسمى بالصياغة الجزلة . وقد يدفع العمق كاتبا ثالثا الى الاستشهاد بأمثلة تؤيد او تدحض الفكرة التي يتناولها وتلك الصياغة تقرب من الصياغة العلمية التي تعتمد على الدليل لاثبات الفكرة .

وتتأثر الصياغة ايضا بمدى جودة الفكرة ، فالفكرة الجيدة تفرض الصياغة الجيدة ، وان تبعية الصياغة للفكرة تجعلنا لا نرتبط بالصياغة لانها تأتي طواعية في صورة مناسبة ، ما دامت الفكرة ذات اصالة وعمق فنيين واصالة الفكرة تبعث في نفس الكاتب روحا جديدة تحفزه الى ان يصوغعبارات قوية ، والاصالة قد تعني الايمان بالفكرة وما يشيعه ذلك الايمان في النفس من مدلول قوي ، يعمل على توليد العبارة الموحية المعبرة . كما ان اهمية الفكرة او جدواها يؤثر تأثيرا قويا على اهتمام الكاتب وعنايته بالفكرة التي احتضنها او قل للطريقة التي يصوغ بها افكاره .

اما موسيقى العبارة ، فهي ترتبط برهافة الحس لدى الاديب الفنان ، ومدى تذوقه للموسيقى ، علاوة على استكشافه لخبايا اللغة واستظهاره ادق خفاياها . كما ترتبط موسيقى العبارة بالحالة النفسية التي يكون عليها الكاتب اثناء الكتابة .

نخلص من هذا كله الى ان اختيار اللفظ وصياغته تابعتان للفكرة بدرجة كبيرة ، ولذا نجد ان هذين العنصرين قلما يستحوذان انتباه الاديب المبدع ، فهما يأتيان طواعية مع التفكير المبدع . اما موسيقى العبارة ، فهي مستقلة الى حد كبير عن الفكرة . وقد يكون هذا العنصر حدا فاصلا بين الاديب الفنان المبدع وبين غيره من محترفي الكتابة ، حيث ان تلك الموسيقى ترتبط بالحس المرهف ، وهو خاصية مهمة بالنسبة لاي فنان مبدع ، كما ترتبط بالحالة النفسية له ، وهو ما يجعلنا نحس باختلاف موسيقى الاسلوب لفنان ما من نص ادبي الى آخر .. وهو عنصر ذو ايحاء نفسي قوي لدى القارىء الذواقة . فالقارىء يكره ان يكون الفنان صورة مكرورة ، يسير في كتاباته على وتيرة واحدة ولا يعمل على تغييرها ، ففي ذلك رتابة واملال يشعر القارىء فيهما انتفاء عنصر الخلق لدى الفنان .. لان الخلق الفني يعني في المرتبة الاولى التغيير، وبالتغيير تكون للعمل الفني صبغته الحيوية التي تربطه بحياتنا ، تلك الحياة التي الفيناها تجد في التغيير والتناقضات فيما بينها اصلا ثابتا نتعرف به على كينونتها وان لم نصل بعد الى صيرورتها .

القاهرة — **حسني سيد لبيب**

(١) ــ عادل كامل : مليم الاكبر ــ طبعة سنة ١٩٤٤ ، ص ٢٦ . (٢) ــ مجلة الادب ــ اكتوبر ١٩٦٥ ــ من مقال « رسالة الاديب » للكاتب .



الصوت الحزين

(رمزية من أجل الجرح)

* * *

من وراء الوجود أسمعت صوتا — يتلوى كالنادب المحزون
قلت يا صوت فيك رنة دمع — مثل دمعي وحرقة كشجوني
أترى أنت من صداي وحزني — قد تمثلت لي فهجت ظنوني
وتري لا يحن أجهد أو بح — فقيثارتي تبكي حنيني
ضج وجدي ولست أهدى سبيلا — لشكاة فهل يطول رنيني
سأل الليل عن هيامي وسهدي — فأجاب الصباح طلع جفوني
وتغنت بقصتي ذات دل — عذبتني وجن فيها جنوني
بهواها من عهد عاد سلالات — تمشت جياشة في القرون
مثل بحر أمواجه تتلاقى — في شطوط منثورة في العيون
حير الروح جرحها فبكاها — كل قلب على مثار الفتون
نورها في الورى يشع كالهام — نبي يسري بسكب هتون
أين غابت ؟ ولحنها عندليب — رحت أجتابه حفيف غصون
كيف نامت على الثرى مثل سكرى — وهي لم تدر ما سبيل المجون
شعرها كان بالضفائر يسبي — عبقري الخصال طيف فنون
ويك يا ريح هل هببت عليها — بسموم فادرجت كدفين
لا ورب العلى فليس لها موت — ولا فقد طرة وجبين
ستعود العروس ، أبهى من الصبح — وأحلى من فاتنات وعين
لبوة هممت وأسد شراها — ملء أرض الكماة ملء العرين
تتوارى الذئاب خوف لظاها — في شتيت من الوهاد لعين
أيها الصوت عد الينا طروبا — لست أرضاك في النداء الحزين

دمشق — زكي المحاسني

عندما يتنفس الصباح ، وتزول خيوط الظلمة عن الكون ، تنطلق القطعان الى المراعي في سهول جرابلس الشاسعة . من القرى تتجمع في السهوب ترعى الكلا ، وتثغو ، فتتصاعد الى العلاء سيمفونية رائعة تعزفها قيثارة الطبيعة وتوقعها الحان الخلود ، فتأتي خلابة لايعتورها نشاز . حداء الراعي يختلط بثغاء القطيع ورنين الاجراس وهرير الكلاب ونداء قبرة حزين يرافق ما تعزفه الطبيعة من ساحر الموسيقى وروائع الغناء .

وتفتح ام محمود عينيها ، رافعة صوتها بالابتهال الحار ، وهي تطل من باب غرفتها الطينية على الزقاق الضيق ، وقطعان الخراف تمر مسرعة من هناك والغبار يتصاعد . وينضم خروفها السمين الجميل الى القطيع فهي دائما تودعه في الصباح لتستقبله في المساء والبسمة تشرق على وجهها .

منذ سنة ودعت ابنها الوحيد محمودا الذي سافر الى دمشق لخدمة العلم . وسيظل محمود هناك سنة اخرى يعود بعدها الى امه ... وهكذا ظلت وحدها في البيت لا يؤنس وحدتها الا خروفها الحبيب . واقسمت انه عندما يعود محمود ستذبح الخروف وستدعو الاهل والاصدقاء الى حفلة كبيرة . ستغني ، وستأكل اللحم ، وستقبله وستعلن للملأ انها ستخطب له عروسة جميلة . من يدري ؟ هل ستكون العروس كابنة سليم الخاطر . تلك الشقراء الفاتنة التي رآها مع والدها وامها ذات اصيل . انها من المدينة ومن الساحل السوري كما يقولون طويلة ، رشيقة ، ناعمة ، قدها المياد يتثنى بلين . ذات عينين براقتين وشعر اشقر يلتف حول وجهها المشرق . اما والدها سليم الخاطر فقد كان قصير القامة يميل الى البدانة ابيض الوجه مشرق الجبهة يحيي من يراه بأبتسامة مشرقة يبدو انها تنضح بالطيب . يلاطف كل الناس ويداعب اهل القرية والقرى المجاورة بملح ونوادر لا تفتأ تتردد على فمه . كان برأي كل القرويين الطف وانظف موظف دولة عرفته المنطقة . أحبه الجميع واخذت الهدايا ترد الى منزله فيتقبلها وعبارات الشكر والامتنان تذوب على فمه رقيقة متواضعة . تعلقت القلوب بالموظف العبقري وانهالت عليه الدعوات وحفلت الولائم بما لذ وطاب ومضى سليم الخاطر متبخترا كالطاووس مزهوا بما يفعل .

وقد كان يقول لزوجته لبيبة التي حضرت لزيارته الم اقل لك انني ذكي . بلساني هذا احتل القلوب واشار الى لسانه وبواسطته



بقلم رياض نصور

سأملك الدنيا . انني اديره كيفما يقتضي واقع الحال ، واستطيع أن اجعل الحنظل حلوا وبالعكس . لهذا اعيش كالامير اتذبذب وفق ما تشاء المصلحة .. هذه سياستي ، وهي سياسة حكيمة والله ... وتضحك السيدة لبيبة مربتة على كتف زوجها موافقة .

ويقطع دابر الضحك برقية وردت من ولدهما العزيز في اللاذقية يخبرهما انه نال الشهادة . وسر سليم اكثر فأكثر لان الدهر يضحك له وحمل لبيبة وطاف بها الغرفة



وهو يقهقه وقبلاته تغمر وجه زوجته وعنقها وصدرها وهي تمانع وتصرخ . ولم يكتف سليم الخاطر بذلك ... بل تقدم من الخادمة التي تضاحكت وغنجت واستسلمت له وهو يدور بها ويقبلها وتلوذ بصدره والغرفة بهما تدور .. فالسيدة لبيبة لم تحب زوجها ابدا ، فما كان ذلك الرجل الوفي لها الحريص على سعادتها . كان انسانا مقامرا خليعا ماجنا . وسلاحه في الحياة هذا اللسان الزلق الناعم وتلك الطلاوة في حديثه مع الناس .. كان انانيا يريد ان يربح ويستأثر بأي شيء ، وان يحصل على اية حاجة لا يهمه الا الربح ويخسر ما يربحه دائما على موائد القمار . كان يعرف ان زوجته لا تحبه فاعطاها الحرية لتفعل ما تشاء . هكذا حصل على حريته بالمثل . وكان يبدو للناس انه اسعد انسان في الوجود وكل من في المنطقة كانوا يقولون انه ملاك في صورة انسان . وخوفا من ان يبيع الملاك ممتلكاته ويخسرها على موائد القمار او ان تعرض في المزاد العلني سجلها باسم زوجته التي اصبحت المالكة لعدة عقارات في اللاذقية ، ومن جملتها ، قصر تسكنه العائلة .

«وام محمود» كانت تقف عند حافة بابها الخشبي عندما مر موكب (الملاك الانسان) فحياها برفق مرددا : كيف صحتك يا خالة وتحشرجت الكلمات في فم ام محمود وزمت عينيها وهي تردد من فرط سرورها بكلمات مبهمة . كم ودت ان تقبل يدي هذا السيد الذي اسعدها بالتحية . وهي فقيرة مسكينة تلوذ بالكوخ ولا امل لها سوى عودة ولدها محمود . انها منسية مهملة ، ضائعة ، لا يعرفها او يكلمها احد .. اما في المساء وعندما تعود القطعان من المراعي فتستقبل خروفها بالضحك والبكاء وتحدثه بما يجول في رأسها من احاديث : اترى اين محمود الان ؟

اللقلوق

★

هضاب ما كروعتها الهضاب ... تعلق في مناكبها السحاب
وأطواد سمت في الجو حتى ... لتهلع من مزالقها العقاب
يحار المدلجون على رباها ... أنار ما تلألأ أم شهاب
كأني بالتلال قد استدارت ... كؤوسا والنجوم لها الحباب
فما اللقلوق الا صرح مجد ... يرف على خمائله الشباب
جنان الله في الدنيا ودار ... لها أبدا على الفردوس باب

وديع ديب

وهل ساحصل على عروس جميلة ؟ اترى اعيش لأرى ولدي الوحيد في كنفي ؟ استقبله واتنشق رائحته بملء كياني؟اسيضمني محمود بيديه القويتين ويقول لي يا أمي بملء فيه؟ ويصغي الخروف الى ام محمود ويثغو ، فتضمه العجوز وتقبله وكأنها تقبل محمودا .

في المساء قرر سليم الخاطر ان يسافر مع العائلة الى اللاذقية للاحتفال بنجاح ولده مروان . ويضحك وهو يقول لخادمته لا تنسي ان تضعي على ظهر السيارة الشادر وقطعة الحبل كالعادة . وتبتسم زوجته فهي تعرف ما يخطط زوجها الذكي .. انه يستطيع ان يفعل ما يشاء وبابتسامته يحصل على ما يريد .

وهكذا مضت سيارة الموظف الكبير وعلى متنها سليم الخاطر وعائلته . كانت تقطع السهوب مارة بين القطعان المتناثرة على المراعي ترعى وتثغو متفرقة هنا وهناك .. وتقف السيارة الكبيرة بين القطعان المتناثرة وكأن خللا طرأ عليهافعطلها عن الحركة .. وينظر سليم هنا وهناك مراقبا الراعي البعيد الذي لا يشك قط بالموظف الكبير وتدور عينا سليم الذكيتان تبحثان عن اسمن خروف . الخروف الثقيل قادم غير ان يدي سليم القويتين رفعتاه الى السيارة وربطتاه بالحبل بسرعة ، وغلفتاه بالشادر .

ويقود سيارته من جديد وهو يضحك ويختلط صدى قهقهته بثغاء الخرفان المذعورة .

ـ لبيبة انه اكبر خروف حصلنا عليه حتى تاريخه ، أسمن واحلى من الخراف السابقة .. كم ستكون الحفلة التيسنقيمها ممتعة ؟وسنأكل الكثير من اللحم ؟ الست ماهرا ؟ وتضحك لبيبة وهي تقرب اذنها الصماء قليلا منزوجها لتسمع جيدا ما يقول وتردد : إنت اذكى انسان في الوجود يا سليم ، فكل الحفلات التي نقيمها لا تكلفنا شيئا الم تحضر لنا السفرة الماضية الكثير من الهدايا وكيسين من الحبوب؟حصلت عليهما بذكائك وحكم بصيرتك الى جانب الخروف الذي كان هزيلا جدا مما دفعك الى انتقائه اكثر نصحا هذه المرة . لقد اصبحت خبيرا بارعا باقتناص الخراف .

وهكذا كانت وما زالت الارض تضحك للموظف الكبير .. وكمافي القرية كذلك في المدينة ، الجيران عبروا له عن حنينهم وشوقهم له مع حبهم وتقديرهم واحترامهم .

وانهالت الدعوات راسا هاتفيا على الاهل والاقرباء والاصدقاء . وذبح الخروف وتصاعدت رائحة الشواء هنا وهناك والضحك والرقص . انها حفلة شيقة يقيمها اهل القصر ويأكلون ويشربون في صحة مروان ونجاح مروان .

كانت ام محمود تلتطم رأسهاوهي تمضي صارخة في ازقة القرية تبكي . لقد ضاع خروفها وهو كل ما تملك ... وتساءل الناس : هل جنت ام محمود ؟ لم يستطع الراعي ان يقول شيئا . كانت ام محمود تصرخ اريد خروفي . وينظر اليها الراعي في ألم والدمعة في عينه مرددا كعادته كلما فقد خروفا من القطيع ، ونادرا ما يحصل ذلك : اكله الذئب .

وتقع المرأة على الارض محطمة هزيلة شاحبة لا تدري ما تفعل . تريد ان تقول شيئا ولكن ليس عندها ماتقوله سوى البكاء والعويل .

ويمر بها اطفال القرية ضاحكين وبينها وبين عودة محمود سنةطويلة وليس لها من عمل . لن تودع خروفها في الصباح لتستقبله في المساء كالعادة . وليس عندها اي شيء تعده لاستقبال « محمود » ... وتتناول حجرا كبيرا تضرب به الارض بقساوة وهي ما زالت تصرخ انها تريد ان تحطم رأس الذئب .

اللاذقية — **رياض نصور**



الدكتور محمد رجب البيومي

مـرارة الاخفـاق

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

تروي بعض الطرائف ان غادة جميلة تنافس حولها لفيف من الشباب ، ردحا كبيرا من الزمان ، كل يقدم لها ولاءه واخلاصه وقلبه ، فلم تلتفت الى احد ، حتى اضطرت بمرور الزمن ان تتخير بين اثنين وقعا منها موقعا متفقا بحيث لم تستشعر نحو احدهما رغبة تفوق الاخر وارادت ان تحسم النزاع فقالت في صراحة : انها لا تفضل احدا منهما على اخيه ، ولكنها ستهب نفسها لمن يفوز في صراع قوي ينشب بينهما ويقرر غلبة احدهما . فالتحم الشابان في صراع حاد نزولا على رغبتها ، وانتصر احدهما لا محالة ! ثم نهض اليها مفتوح الذراعين يحدق بعينيه ليرى ابتسامة القبول والحظوة ، ولكنه بفت حين شاهد حسناءه تشيح عنه وتنكب على العاشق الصريع تضمد جراحه وتعلن انه الفائز بفؤادها !

دهش النظارة وتساءلوا عن سر هذا الاختيار العجيب فأجابت في حماسة انها لا تستطيع الا ان تحترم هذا الذي جرح جسمه وسال دمه من اجلها ، اما المنتصر فيكفيه من الفرحة نشوة الانتصار وتصفيق الاكف !

تروى هذه الطرفة كمثل نادر في تقدير المخفق واحترام جهده ! ولكن اي مخفق نقدر ونحترم ؟ انه قطعا ليس الخامل الكسول الذي يضيع على نفسه الفرصة السانحة ويتثاءب دون نشاط اذا حان موعد العمل الكادح فذلك لا يستحق سوى الازدراء ! اما المخفق الذي يبذل جهده الجاهد ويستعد للامر استعداد اليقظ الحريص ثم يفوته النجاح لعامل فوق قدرته فانه ممن يستحقون التقدير ، وهذا ما عنته الحسناء حين آثرت عاشقها الجريح .

والاخفاق سلاح نفسي باتر لانه يعصف بالارادة عصفا ، ويهدم دون هوادة ما يتجمع من عزم في كيان المخفق حتى ليعرقل سيره اذا سار ، بل انه يرى صاحبه ما لا يرى سواه في وجوه الناس ويسمعه ما لا يسمع ، فكل نظرة اليه تؤول الى تهكم واستهزاء من البعيد والى عطف ورثاء من القريب وكل همس بين اذنين حديث عن كبوته وتندر بعثرته ! ومن ثم ترى المخفق لا يني متطلعا في وجل هالع الى ملامح الوجوه متسمعا الى همسات الافواه مما ينطق بمحنته الداخلية في افصاح مبين ، اذ لو وقف انسان ما ، على قارعة الطريق يتصفح وجوه المارة من الرائحين والغادين لامكنه بسهولة ان يميز الانسان الناجح في عمله ، المعتز بمجهوده ، من العاجز المخفق الذي تؤوده العقبات وتقف الموانع دون ما يبتغيه ، فهو يرى الانسان الاول طلق الوجه ، قوي الحركة ، هادىء النظر ، على حين يرى الثاني ممتقع الوجه عابسه ، ساهم النظرة حائرها ، شارد التفكير في ذهول وكما يمر بك المريض الشاحب فترتاح لشحوبه وتأسى لعلته ، فكذلك يمر بك العاجز المخفق فتأسى لمنظره المكتئب وانقباضه الموحش ، وعزمه المتضعضع ، ولسنا نعد وجوه الشبه بين المريض في جسمه ، والمخفق في عمله ، فكلاهما يكابد من الاشجان ما يؤرق عينه ، ويقض مضجعه ، ولكننا نجد مريض الجسم في كثير من احواله مبعث الرحمة ومثار العطف من مخالطيه ، فهو يتبسط لهم في شرح الامه الجسمية ، وعلله العضوية فيجد الاذن السامعة ، والقلب الرحيم واللسان الناصح ، اما العاجز المخفق في عمله فيعترض الهم طريقه ويرين اليأس على خاطره فيبيت ليله ساهدا ويظل نهاره مكدودا ملتاعا ثم لا يستطيع في اكثر اموره ان يكشف للناس مناحي فشله ومواضع اخفاقه ، واذا اضطر الى ذلك اضطرارا لجأ الى تشويه الحقائق ليبرىء نفسه من سمات الضعف ، وبواعث العجز والاخفاق ، اذ انه من الصعب البالغ على الانسان ان يعترف بعجز لحقه فيما يسهل اداؤه بالقياس الى زملائه ، فاذا سئل عما اصابه من اخفاق حاول ان يحيل على غيره اذا وجد من الاسباب المتوهمة ما يجيز ذلك في بعض الاذهان ، ثم يجهد نفسه في اختلاق وسائل التبرير وحجج الدفاع ، وهو يعترف في اطواء نفسه بحقيقة قصوره وتقصيره ، ومكمن فشله وقنوطه ولكنه لايستطيع ان ينفس عن صدره كما ينفس المريض ذو العلة الجسمية بذكر الحقيقة الكارثة بقلة حيلته وخيبة مسعاه ، فليترك المرجل يغلي مضطرما في صدره محتدما في احشائه دون ان يجد وسيلة لتهدئته وتسكينه ، وقد يتجسم اخفاقه

أمام عينيه اذا تكرر ثانية وثالثة ورابعة كما يحدث أحياناً، فيفقد الثقة في نفسه ويزعزع بواعث الاطمئنان من قلبه، فيصبح المخفق هيابة نكسا يحجم عن المشاركة في كل عمل مثمر كيلا يطارده الاخفاق ـ كشانه الامس ـ فيصير مضغة الافواه من جديد، وفي الناس من يتلذذون كثيراً بالحديث عن المخفقين فيظلون مادة سخريتهم ولهوهم لا يبرحون حديثهم الراوي، وكانهم بذلك يريدون ان يقولوا اننا لسنا من طرازهم، وبذلك يستشعرون بعض التيه النفسي الكاذب اذ سلموا من اخطاء المنكوبين، بل ان في الناس من يجسمون اخطاء معارفهم تجسيما مذهلا ينقبض له المنصفون، فهم اذا عثروا على زلة هينة اخذوا يجوفونها تجويفا ويضخمونها تضخيما ليثبتوا للملأ انهم بمنأى عن الزلل والسقوط، ومثل هؤلاء لا يرحمون المخفق اذا وجدوه بين ظهرانيهم، فحديث اخفاقه انشودة عذبة تطرب الاسماع، ولا حيلة لنا في هذا الطراز من الناس فان تقدم الانسانية في ركبها المدني يسمح ببقائه دائما دون استئصال! هؤلاء الطغام من الاوشاب يزيدون تبريح المخفق بلاء فوق بلاء، فهو يحذر السنتهم القارصة ويتخيل في نفسه احاديثهم الزارية فاذا دفعته الظروف القاسية الى عمل جديد تخطفته الحيرة، وتقاذفته الدهشة مقدرا عاقبة الخذلان امام هؤلاء الاوغاد ومن ثم لا يفرغ لروية متأنية، او يركن لتدبير سديد، ومهما جد المتردد الهيابة في امر فلن يبلغ في انجاحه مبلغ الحازم المصمم، الواثق من خطواته، الهازىء بنقد المغرضين، واراجيف الموتورين! فانه سيقطف من الثمرة اضعاف ما يقطفه المتردد الخوَّور، والويل له من هواجسه الحالكة اذا خلا الى نفسه فوازن بين مسعاه الضئيل ومسعى غيره من ذوي الحزم والعزم!

واذا كانت النفوس متفاوته في الذكاء والقدرة على الافادة من التجارب، ووضوح الرؤية البصيرة لمحيط العمل ومتدرجاته المتعددة وزواياه المتشعبة فان النجاح والاخفاق يرجعان غالبا الى الخطة التي ينتهجها الانسان في ميدانه وفق استعداده الشخصي وقدراته النفسية، والفشل داء مزمن لم تستطع التربية المعاصرة اجتثاث جذوره وان ساعدت على تضييق مجاله بعض المساعدة! وليس التعليم المدرسي والجامعي ممايعصف ببلواه، اذ اننا نرى بعض المخفقين نهلوا من الثقافات العالية وظفروا بالدرجات العلمية ذات الشرف حتى اذا تركوا مقاعد الدراسة وخاضوا لجة العمل غرقوا في الخضم! وقد تجمعهم الملابسات مع من هم دونهم في مجال واحد، فيخفق الجامعي وينهض من دونه! وقد طال حديث المربين في الشرق منذ اكثر من نصف قرن عن فساد الطريقة التعليمية التي تستهدف تحصيل العلوم والمعارف دون اهتمام بالتربية النفسية والخلقية وتهيئة المواطن السوي وبذلت في هذا المضمار جهود كثيرة قام بها رواد التربية المعاصرة ممن وقفوا على أحدث النظم التربوية في أوربا وأمريكا! ولكن مرور نصف قرن أو يزيد على قيام الاصلاح التربوي في مصر وبعض البلاد العربية لم يعقب اثرا ذا بال في التوجيه والتسديد.

والطريق العملي للنجاة من الاخفاق الا يخدع المخفق نفسه في شيء! فعليه ان يواجه نفسه مواجهة صريحة ليتعرف مواطن ضعفه ومهاوي سقوطه، فيزن عمله على ضوء نتائجه ليدرك الثغرات المتسعة التي تسرب من منافذها الفشل، ففي ذلك الادراك التفات اليقظة الحريصة، وتغيير من الخطة المعوجة واستعداد لمعالجة الداء ببلسم شاف، كما ان في استشارة الناصح المخلص، وتأمل سلوك الناجحين، ومنازعهم في الاخذ والعطاء فائدة حقيقية لمن يقف عليها، فاذا بدل المخفق خطته واستشار ذوي النصيحة الخالصة بدأ العمل في حزم وثقة، وعليه مع ذلك الا يتعجل الثمرة اليانعة من بابها القريب فاذا أبطأت عنه لبعض الاسباب فليسبح وراءها سبحا طويلا مستثيرا همته المصممة، ثم ليواصل السير الى النهاية فمن يدري فلعل النجح قريب!

وكم من الناس من ساءت حظوظهم بدءاً ثم حسنت نهاية فما وهنوا لاخفاق، او استكانوا لكارثة، اذ ليس الفشل ضربة لازب على بعض الناس يواجهونه انى يقصدون!

أكتب ذلك وانا أعرف أن بعض القراء سينفضون رؤوسهم ساخرين ثم يقولون نصائح وارشادات يعرفها كل الناس! ولن يأتي العلاج الحاسم بوعظ منبري ونصح أخوي! يقولون ذلك ثم يديرون وجوههم وكأنهم فرغوا من المشكلة ووجدوا لها العلاج الحاسم! فاذا سألتهم وجه الرأي صاحوا كخطباء مصاقع: لنصل الى البواعث النفسية، لنحلل واقع المخفق ونعمد الى ظروف بيئته وواقع عمله واسرار تكوينه ثم لنفحص عقده الكامنة، ولنقف على احلام يقظته وهواجس نومه!! وانت لا محالة تعرف سلفا جميعما يقولون!

ولكن هذا التشريح الشخصي وذلك التحليل النفسي لن يكونا في مقالة تنشر لجميع الناس على وجه عام ولكنه علاج ذاتي شخصي مكانه العيادة النفسية لدى عالم متخصص!! ونحن ننصح هؤلاء المرضى بارتياد العيادة النفسية ذات الطبيب الحاذق ففيها كثير من النفع دون مراء، ولكن وجود العيادة النفسية لا يمنع كاتبا أن يسطر ملاحظاته العامة لجمهرة القراء كمايلمسها! ونحن لانتحدث عن مخفق خاص، أو فاشل معين فنقف بالحديث عنده وحده انما نشير الى ملاحظات هامة نلمسها لدى الكثرة

---

(١) يتشدد بعض اللغويين في منع كلمة الفشل بمعنى الخيبة ويقصرها على الضعف، وقد جرينا في هذا المقال على الاستعمال الاول لذيوعه ولوجود ما يبرره من التاويل. اه

من الفاشلين ، كما نشير بعلاج عام يفيد في مجموعه اذ يلقى بعض الضوء الكاشف وهو لا محاله ينفع ذوي الاخفاق المبدي فيقفون على مكامن أدوائهم قبل ان يمتد الحريق .

وآفة الاخفاق اليأس ! فهو العاصف المدمر الذي يقيد كل خطو عن العمل ، واذا تمكن من انسان فقد حطم ارادته وشل تفكيره اذ يجسد المخاوف أمام عينيه فيتوهم لكل عمل جديد نهاية اليمة ، ولكل تجارة خسارة مرتقبة ! ومن نقاط الضعف لدى المخفق أنه يعتقد ان غيره من الناجحين لم يذوقوا كؤوس الخيبة في خطواتهم الطويلة على درب الكفاح مرات ومرات ثم شحذوا العزائم وواصلوا السير في تحد للصعاب حتى قهروا الفشل قهرا ، بل يعتقد في أطوائه أن هؤلاء الفائزين قد وثبوا الى النصر وثبا في طريق فرش بالازاهير وهذا ما يكذبه الواقع ، فليس النجاح في العمل ورقة يانصيب تؤخذ بقرش فتكسب في الحال مئات الجنيهات اذ ان النجاح والخيبة والكسب والخسارة والعلو والهبوط أدوار طبيعية على مسرح الحياة تتعاقب متتالية ولن تقطف الثمرة النهائية الا بعد صراع تدخر له القوى ، وتحشد العزمات ، وقد تأتي الخيبة عن أسباب لا ترجع الى تقصير الخائب وقصوره بل الى مناقضات الحياة وهبوب الريح من جهة غير متوقعة وهذا ما لا حيلة فيه لأشد الناس ذكاء وأقواهم عزيمة !

ومن حسن الحظ أن ذلك لا يطرد ، اذ ان رحمة الله تأبى ان يكون الانسان محاصرا دائما بقوى غالبة تفسد خطته ، وتأتي على بنيانه من القواعد ، ونحن نرى ان الذين تصدمهم الحياة بما لا يتوقعون ، بعد ان أحسنوا العمل واتموا التدبير سرعان ما ينهضون وقد ضمدوا جراحهم وتأهبوا لجولة عاجلة تأتيهم بالنصر السريع الا من شذ ! وقد يجنح انسان سوي الى عمل لا يلائمه فيتخبط في فشله ، ويكون الاخفاق لديه نتيجة اختيار مخطىء ، ولا غرابة في ذلك فبعض العقلاء يجهلون مواهبهم الأصيلة فلا يسلكون السبيل الى استغلالها بل يقومون بما يتعارض مع قدراتهم الكامنة من أعمال ، فيحاربون في حلبة لا يقدرون على الصيال بها ، ولو عدلوا الى ميدانهم المناسب لجلوا ظافرين ! ونحن نشاهد في المجال الأدبي — على سبيل المثال — من يتعاطى الشعر وهو كاتب ، ومن يكتب المقالة وهو روائي ثم يصر على ممارسة انتاج لا يبرز حقيقة معدنه ! واذا جاز ذلك في الحقل الأدبي وفرسانه من ذوي التفكير والدراية فهو في غيره من الحقول المتنوعة أكثر جوازا ، وما الصانع الذي يترك صناعته ليفتح حانوت بقالة الا أحد عشرات الأمثلة لما نريد !

ومن المشاهد أن الاخفاق في بعض أحواله يكون متوهما لا حقيقيا اذ يتخيل ، لبعض الناس انه غير موفق في عمله ويلتمس من الأسباب الموهومة ما يؤكد له هذا التخيل ، ولو تأمل حقيقة واقعه بعيدا عن سرف الآمال وسبحات الاوهام لادرك انه موفق غير متعسر ، ولأمر ما يتبدد الصفاء النفسي مع توافر أسبابه ، وينجم الكدر الروحي مع انقطاع بواعثه لدى المسرفين في الآمال الواثبين بأجنحة الشطط الى دنيا تعبق بالأريج ! وقد ينساق هذا الصنف من الحالمين الى مقارنة زائفة يعقدها بين نصيبه ونصيب غيره ممن أسعفتهم ظروف استثنائية لا تطرد مع سائر الناس فبلغوا شأوا من الثراء والجاه لم يتح لجمهرة العاملين ! فاذا ارتقى زميل ما من غير طريق مألوف ، فلن يكون ذلك اخفاقا لمن نهج النهج الطبيعي من زملائه ! ولن يكون ذلك مظنة خيبة لدى من يقلبون كفا على كف متحسرين ! واذا كان الضعف الخلقي نفسه هو الذي أتاح الارتقاء من غير وجهه لدى بعض الوصولين فان الضعف الخلقي هو الذي يجعلنا نعد انفسنا مخفقين اذ لم تتح لنا ظروف شاذة كظروف صاحبنا السعيد ! ويا لها مأساة أنا لا أنكر أن الموازنة بين النظراء عمل غريزي لافكاك منه ! فكل زميل يضطر الى قياس نفسه بغيره ممن يتساوون معه في العمل والملابسات ! ولكني انكر ان تكون الموازنة على اساس النتائج دون المقدمات ! فلا بد أن يقدر الموازن المنصف في اعتباره خطرات النجاح والخيبة قبل ان يجعل النتيجة النهائية مجال الحكم والترجيح ! وبذلك تنخفض أقدار مرتفعة ، وترتفع جهود متواضعة لدى من يؤثرون الصراط القويم !

أعرف تاجرا امينا يرعى حدود الله في واجبه ، فلا يتعسف في اجتلاب ربح زائف ، وقد وفقه الله في عمله ففنم الكسب المعقول ورزق الحياة المسعفة ، ولكنه مع ذلك قلق متضجر يلقي الحياة بنفس ضائعة وصدر منقبض ويعتقد فيما يصارح به خلصاءه أنه مخفق عاجز فاذا استوضحته رأيه ذكر زميلا له كان يشتغل برأس مال كماله ، ثم استغل بعض منافذ التموين الحكومي لحسابه فاختزن واحتكر ، ونجا بحيله الدقيقة من المسؤلية القانونية وهو الآن يقتني العقار ، ويشتري الارض ، ويفتح المتاجر ! هذا الثراء الشاذ مبعث التياع صاحبنا ومكمن ضيقه المتأزم ، فليته يعلم أنه أسعد حظا من صاحبه حين اطمأن الى سلامة طريقه فنجا من عقدة التأثم ، وسلم من ثورة الضمير التي تشب كثيرا في نفوس أعتى العصاة حين يستعرضون مخازيهم الفاضحة في هداة الليل ، ولكل انسان طائره في عنقه ، يذكره بما قد افرط مهما تغافل فأطال .

آن لنا ان ننظر الى الاخفاق نظرة موضوعية فندرس بواعثه ونتعرف اسبابه ، ثم نعمل على مواجهة الحقائق كي نقترب من العلاج الراشد ، ومن المفيد ان نطيل في تشخيص هذا الداء البغيض متمهلين فلعله اخفاق متوهم لا عجز متحقق عند الكثيرين (1) .

الفيوم — دار المعلمات

محمد رجب البيومي

لقاء في غرناطة

مهداة الى الصديقة الشاعرة سلمى حفار الكزبري
ذكرى لقائنا في غرناطة

★ ★ ★

يا عذبة البسمة يا ساحره وسلوة للمهجة الحائره
يا حلوة العينين ، هذا اللقا عذب كأحلام الصبى الناضره
حمدت غرناطة من أجله : من أجل هذي الهبة النادره
ولم تكن لولاك غرناطة - رغم البها - فتانة ساحره
لكنها الان بدت جنة ما مثلها الجنة في الآخره
اني هنا لشاعر عابر يلقى هنا أختا له شاعره
جئنا من الشرق ولكننا لم نجتمع في أرضنا العاثره
غرناطة أقرب من جلق تجمعنا في زورة عابره
روحان للحسن بنا صبوة وحب أمجاد لنا داثره
شاعرتي ، فلنسترح ههنا ولنستعد أيامنا الغابره
فها هنا كانت عهود لنا أخبارها مرموقة عاطره
تروي الفتوحات أحاديثها كأنها أسطورة باهره
وماتني آثارها حية بكل مجد شامخ عامره
لو تنطق الحمراء لاسترجعت أبهاؤها أيامها الزاهره
كأنها أنشودة حلوة تبعثها قيثارة آسره

رفيقتي ، نحن هنا صحوة من حلم ، أم حلم ساخر ؟!
أنحن مبعوثان في حاضر ماض، أم الماضي هو الحاضر؟!
هل بعث التاريخ من أمسه فكان فينا بعثه الباهر ؟!
لسنا غريبين ، فقد ضمنا معا هنا تاريخنا الغابر
هنا تلاقينا ...
هنا خطونا كان له ايقاعه الآسر
في جنة العريف ميعادنا ضمخه أريجك العاطر
مع مطلع الشمس نلاقي الضيا في حلم ليس له آخر
عيناك ...
يا للسحر ! يا للرؤى ! سحرهما لي فاتن قاهر
لا تغمضي عينيك ...
لي فيهما اصباحي المعطر الساحر

غرناطة

عيسى الناعوري

تجارب من بلاغة اليوم

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

مع مطلع القرن العشرين ، وبفعل الاحتكاك المباشر مع الغرب وآدابه ، تنبهت الأذهان الى التجديد الادبي ، والنقدي ، والبلاغي ، فقد اصطبغ الأدب العربي في نتاجه الجديد ، الحديث ، في البلاد العربية والمهاجر آنئذ بصبغات جديدة ، حديثة في الشعر والنثر ، أنواعهما ، موضوعاتهما واساليبهما .. الامر الذي ساعد على التأصيل النقدي ، والبلاغي ، وتوطيد مبادراته ، وذيوعها ..

وعندما انشئت الجامعة المصرية القديمة ، عام ١٩٠٨ ، استقدمت الهيئة الادارية فيها عددا من المستشرقين لتدريس الادب ، واخذ المستشرقون يطبقون مناهج البحث العلمي الادبي في دراسة الأدب ، الامر الذي كان له أثر كبير ايضا في التأصيل النقدي ، والبلاغي ، ناهيك بأثره في التجديد الادبي نفسه ، واللذين كانت تطمح اليهما النفوس وقتها ..

وقد استطاعت البيئات الجامعية العربية أثرها ، الجامعة المصرية الحديثة ، التي تجددت عام ١٩٢٨ ، ومدرسة الآداب العليا ، في الجامعة السورية ، والتي تأسست عام ١٩٢٩ ، وغيرهما أن تجدد في طرق البحث الأدبي ، وتجدد في مفاهيم الادب نفسه ..

وقد دخل الادب العربي بذلك ، بالفعل ، مرحلة جديدة من حياته ، وعلى الخصوص نقده ، أو التاريخله ، وبلاغته ، وهي المرحلة العلمية المنهجية الحديثة التي تنصف المادة المدروسة ، والمنهج الذي يصطنعه الدارس لتمحيصها ، وجلائها ، من دون ان تغمط حق الراي ، أو الذوق ، او ان يهملهما في ذلك ..

يلاحظ الدكتور محمد مندور في كتابه « الأدب ومذاهبه » مصر ، ط ٣ ، ص ٩ وما بعدها ، أن التعريف الحديث للادب ، من انه ، أي (الأدب : صياغة فنية لتجربة بشرية) ، انتشر عند دعاة التجديد المحدثين وخاصة في الشعر ، وذلك بفعل تأثرهم بالغرب وآدابه .. صدر عنه ابراهيم عبد القادر المازني ، وعباس محمود العقاد عند نقدهما لأحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وخاصة في كتاب الديوان ، كما ظهر مدلول التعريف واضحا في كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة ، وفي مقدمات دواوين شعرية عديدة ، نشرها أحمد زكي أبو شادي ، والعقاد ، والمازني ، وغيرهم ..

ومن المؤسف ، كما يلاحظ الدكتور مندور أثر ذلك ، أن تفهم هؤلاء الدعاة المجددين للأدب ومضمونه حسب هذا التعريف كان قاصرا ... فالتعريف غربي حديث ، وقد ضيعوا من مفهومه .. ولذلك انبرى يوضح في صفحات مركزة من كتابه المذكور المقصود من (تجربة بشرية) ، وأنها ليست التجربة الشخصية فقط ، كما كانوا يظنون ، أو يذهبون الى ذلك ، وانما تشمل ايضا تجارب أخرى ، التاريخية منها ، والأسطورية ، والاجتماعية ، والخيالية يدلل عليها بنماذج وامثلة من ادب خليل مطران ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهما ..

ان تطور الحياة الادبية الحديثة ، في هذا المثال ، جاء عن طريق التأثر بالاقتباس ، والترجمة ، وظهر على شكل تفاعل الادباء ، والنقاد على السواء مع الجديد ، والدعوة اليه .. أن تأثير الأدباء ، والنقاد في الحياة الادبية ، وفي التأصيل النقدي ، والبلاغي الآخذ بالنمو ، والازدهار آنئذ ، لا يقل قيمة ، وأهمية ، وخطرا عن أثر البيئات الجامعية العربية وقتها فيهما ..

العامل الفعال عامل بناء وتجديد في المثال ، لا شك في ذلك ، لنقل عامل تسوية أنتاج حديث ، أو تسوية نقد حديث .. أي انه عامل من الحياة نفسها ، وليس من بيئة جامعية معينة ، أو بيئة علمية معينة .. والموضوع تمثل حديث للأدب ، حسب تعريف حديث له ، وماذا حصل؟.. لقد تقلص التمثل ، وجدت دلالته ، واقتصر شموله على التجربة الشخصية دون سواها ..

ولا شك أن تفاعل الادباء ، والنقاد معظروف التجديد الذي كانوا يطمحون اليه ، والمسار الذي قطعه التجديد الادبي ، وما اصطبغ به من صبغات ولونيات ، كل ذلك ساعد على التأصيل بفعل الحياة نفسها ، وسوف نرى أن البلاغة ، ودراستها الحديثة تسير هي نفسها متفاعلة مع الحياة العربية الحديثة ، والتي لا تنفك تصطفي ، وتختار ، وتميز ، وتفرز ، وتقنن ، وتقبل ما تقبل ، وترفض ما ترفض ..

مثال آخر بارز من واقع أدبنا العربي ، ونقده ، ودراسته في مطلع القرن العشرين .. لقد كانت (اللغة الرسمية) في الدولة العثمانية ، خاصة في الفترة الاخيرة ، هي اللغة التركية ، وقد كان رصيد اللغة العربية في الاقطار العربية آنئذ ، ظاهر الاهمال ، خاصة في التعليم الرسمي ، والاميري ، وكان يدرس آنئذ باللغة التركية ، وهو رصيد شعبي مقتصر وقتها على تعليم القرآن الكريم ، ومبادىء من نحو وصرف وبيان ..

في حين كانت الطريقة القديمة في التعلم ، والتعليم ، أي عن طريق مجالس المدرسين ، والوعاظ في المساجد ، أو عن طريق المؤدبين في البيوت شائعة آنئذ ومتواترة ، واستمر الأخذ بها حتى قيام الحكم الفيصلي العربي في

سورية ، أثر الحرب العالمية الاولى ..

وقد عملت الحكومة الفيصلية ، وهي اول حكومة عربية سورية تحكم البلاد السورية بعد التحرر من حكم الاتراك على تعريب الدواوين ، وأنشأت مدرسة للكتاب والمنشئين لتعليم موظفي الدولة الكتابة العربية السليمة ، ويحدثنا الاستاذ خليل مردم بك الذي كان يعمل آنئذ ، مميزا في ديوان الحكومة ، ينقح الرسائل الرسمية الصادرة ، والواردة ، أن الحكومة الفيصلية كلفته بألقاء دروس في الأنشاء ، والكتابة على الموظفين ، ففعل ، ثم ما لبث أن جمع محاضراته في كراس سنتحدث عنهبعد قليل ..

ويقول الامير (مصطفى الشهابي) ، في حال اللغة العربية ، آنئذ (١) :

« .. ومن النادر في ذلك الزمن ان يجد المرء شابا في مقتبل العمر يكتب بالعربية ، في يسر ، وصحة ، وسلاسة ، ولا شك في ان الشبان في أيامنا هذه سيتعاظمهم قولي ان لغتنا الضادية كانت تدرس بالتركية في المدارس الحكومية ، وانه لولا بعض المدارس الاهلية من اسلامية ومسيحية ، ولولا العادة القديمة في تلقي علوم اللغة ، والدين على العلماء في البيوت ، او المساجد لما وجدنا في ذلك الزمن كاتبا قادرا على تأليف كتاب عربي او على كتابة مقال في صحيفة عربية .. »

كانت تلك الحال حالنا في اواخر القرن المنصرم ، واوائل القرن الحالي ، ومع ذلك لم تعدم البلاد العربية السورية آنئذ نوابغ مبدعين حملوا مشعل الادب ، والنقد، والبلاغة ، الفوا فيها ، ونافحوا عنها ، والذين اذكر منهم (٢) ، مثلا ، الاب لويس شيخو ، الذي كانت كتاباته موسوعة الجيل الادبية ، والنقدية ، وترك كتبا قيمة في علم الادب ، والانشاء ، والعروض ، والخطابة ، والشعر والتاريخ الادبي ثم محمد كرد علي الذي خدم الفكر والادب واللغة آنئذ خدمات جليلة ..

ناهيك بالفنانين والادباء المبدعين الذين طوروا اساليب الاداء الادبي عن طريق المسرحية ، والرواية ، مثل ابي خليل القباني ، وتلاميذه ، ومنهم داود قسطنطين خوري ، وغيره ، او مثل معروف الارناؤوط الذي كان يترجم انئذ المسرحيات والقصص المختلفة ، ثم نبغ في الرواية التاريخية العربية الاسلامية ، وغيرهم ..

وكراس الاستاذ خليل مردم بك يحمل عنوان «كتاب دروس الأنشاء » ، ولا يزال مخطوطا ، واطلعت عليه عند الاستاذ عدنان مردم بك ولد اديبنا خليل مردم بك ، ولخصته من عنده ..

يقول خليل مردم بك في مقدمة مؤلفه :

« اما بعد فهذه دروس في الأنشاء العربي ، كنت القيتها في مدرسة (الكتاب والمنشئين) التي اسستها الحكومة العربية في أوائل سنة ١٣٣٧ هـ لارباب الوظائف خاصة . فكان الموظفون يجتمعون ضحوة كل يوم في بهو الحكومة لسماع ما يلقى من دروس الانشاء ، والنحو ، والصرف ، وكان عهد الي بتدريس الانشاء ، فبدا لي ان اجمع في هذه الرسالة ما القيته عليهم ، لعل مستفيدا يصيب منها فائدة : والله الموفق سبحانه » .

ويحوي لكراس على جانبين ، جانب تاريخي عن الكتابة العربية منذ عصر النبي حتى العصر الحديث ، ثم جانب نظري ، ولنقل نقدي مقتن ، من اقوال أئمة الادب ونقد العرب القدامى ، امثال الجاحظ ، وبشر بن المعتمر وابن عبد ربه وغيرهم .. كما يحوي على مختارات من النصوص الادبية من مختلف العصور العربية ..

نقرا،مثلا ، في (تمهيد في الكتابة والانشاء) مايلي :

« ينقسم كلام العرب الى قسمين‌الشعر والنثر، وكل منهما يشتمل على فنون ومذاهب ، أما بحثنا الان فنقصره على النثر ، او فرع منه نعني الكتابة والانشاء ، واللذين لا بد لطالبهما من الوقوف على بعض العلوم كالنحو والصرف والبلاغة .. »

ثم يضيف « والاطلاع على كتب البلغاء ، واستقراء كلام الفصحاء ، والنظر في اساليبهم ، واقتفاء اثارهم ، وتتبع مناحيهم في رسائلهم ومحاوراتهم ، والامعان في فهم ما وضعوه من الاشراط ، والاخذ به .. كي ترسخ في النفس ملكة يقدر معها صاحبها على الابانة عن مقصوده ، اذ ان الاعراب ، وحده ، غير واف بالحاجة»

وبالفعل ان جمع الاقوال والشواهد ، ثم العرض التاريخي لتطور الكتابة في الكراس ظاهر الغاية ، وهي اعطاء فكرة عن فن الكتابة ، ثم السماح بالتعاطف مباشرة مع أمثلتها (٣) ..

هذه الجوانب المختلفة في الكراس تنمي بالفعل الملكة التي يقدر معها صاحبها على الابانة عن مقصوده .. هذه الملكة ستساعده ايضا ، على حد قول المؤلف ، على تمييز الجيد من الرديء ، وملاكها على حد قوله ايضا ، الطبع الرقيق ، والذوق الصحيح ، والقريحة الوقادة ، والذكاء الغريزي ، والميل الطبيعي الى الادب ..

ومما عكسه النقد الادبي انئذ ، حملات احمد شاكر الكرمي على الاساليب الركيكة ، والمبتذلة التي تفشت في الكتابة انئذ ، او دفاعه عن عمود الشعر ، اوزانه ، وقوافيه ..

يتألف الشعر الادبي ، على حد تعبيره (٤) ، من اجزاء اربعة ، هي : اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية . يشترك الشعر مع النثر في الجزئين الاولين ، وينفرد عنه في الجزئين الاخيرين ..

اللفظ : اتفق عامة شعراء العرب ، ونقادهم ، على ان يكون اللفظ شريفا غير مبتذل ، ولا مهجور ، وان يكون

منسقا تنسيقا خاصا يخالف تنسيق النثر بالضرورة ، وقد وافق جمهور الافرنج والعرب في أمر اللفظ في الشعر ، وان الشعر يجب ان يكون له معجم خاص يخالف معجم النثر ..

يعلق احمد شاكر الكرمي على ذلك ، مسجلا تقهقر اللغة الشعرية في ايامه ، فيقول (٥) :

« ويستطيع القارىء بعد ان عرف قيمة شرف اللفظ ، وتنسيقه في الشعر عند العرب والافرنج ان يدرك سر تقهقر السواد الاعظم من شعرائنا في سورية ، والمهجر خاصة وسبب تاخرهم .

فان اولئك الشعراء قد اسفوا في لغة منظومهم ، وبعدوا عن النسق الشعري فيه بعدا عظيما ، وجعلوا قصائدهم واشعارهم لا تمتاز عما تنشره صحف الاخبار في لغتها واسلوبها ، والصحف كما هو معلوم هي الينبوع الوحيد الذي يستقي منه هؤلاء مادة لغتهم ، حتى اصبح الابتذال في اللغة والاسلوب صفة غالبة على منظومهم الذي يسمونه عصريا .. فجنوا بعملهم ذلك على الشعر ، وطعنوه في اشرف مقاتله .. »

المعنى : ويرى انه اجزاء الشعر ، وابعدها عن الخضوع للتحديد العلمي ، ولذلك ينتهج نهجا خاصا يسرد فيه اهم الصفات التي نص علماء الادب على وجوب اتصاف المعاني الشعرية بها ، من غير التفرقة بين راي عربي ، واخر افرنجي .. قال (٦) :

« رأينا فيما قرأناه من الموسوعات ، وما رجعنا اليه من المظان ، ان اهم ما يلزم ان تتصف به المعاني الشعرية ، اربع صفات هي : الاطراب ، والسمو ، والشمول والجدة »

ثم يشرح هذه الصفات ، فالاطراب هز النفوس ، وتحريك عوامل ارتياحها ، والسمو التباعد عن المعاني السوقية المبتذلة ، ويبدو في الافكار السامية ، والخيالات العالية ، والعبارات المهذبة ، والشمول في بعد الغور واتساع المدى ، والتعدد ، والجدة وهي ابتكار المعاني غير المطروقة ..

ويعلق احمد شاكر الكرمي على هذه الصفات . فيقول (٧) :

« وعسى ان اكون بعد كل هذا قد استطعت ان اقرب حواشي هذا الموضوع الصعب الذي هو ابعد الموضوعات من الجري على سنن التحديد العلمي .. ليعلم القراء ان الشعر باعتباره اثرا من اثار الفن ، يجب ان تتصف معانيه بهذه الصفات الاربع الجامعة ، فتكون تلك المعرفة ميزانا عادلا في ايديهم يزنون به تلك الترهات والاباطيل التي تطن في اذنهم كل يوم ، والتي يسميها اهلها شعرا ، وما هي من الشعر بشيء .. »

يتحدث احمدشاكر الكرمي عن اثرها في الوزن والقافية فيقول (٨) : « والمقصود بالوزن : جري الكلام على مقاييس خاصة ، اما القافية فهي اخر البيت .. » ثم يقول : « وقد اختلف الناس في امرهما ، فذهب فريق من المتأخرين الى انهما غير ضروريين للشعر ، وانه يتحقق بدونهما ، وقال بعضهم ان الوزن ضروري ، اما القافية ففير ضرورية ، وارتأى فريق اخر من المتقدمين ، وتابعهم على رأيهم كثير من المتأخرين ايضا ، ان الشعر هو الوزن والقافية »

ثم يورد الاراء المتطرفة ، في نظره في ذلك ، ويرد عليها فيقول : « كان ممن ذهب الى عدم ضرورة الوزن والقافية في الشعر المرحوم زيدان ، فقد قال في كتابه : تاريخ اداب اللغة العربية ، جا ص ٥٤ :

« ولكن علماء العروض من العرب يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالالفاظ ، وهو تعريف النظم ، لا الشعر ، وبينهما فرق كبير ، اذ قد يكون الرجل شاعرا ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس في نظمه شعر .. وان كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعا في النفس ، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه في النثر .. »

ويعلق على مجمل زعمه (٩) ، فيقول (١٠) : « وهذا راي غير قويم ، لان هذا القالب الذي يسبك فيه الشعر كما يقول زيدان ، او هذه الصورة الموسيقية هي التي تميز

---

(١) العروبة تكرم خليل مردم بك ، دمشق ١٩٦٠ ، كلمة الامير مصطفى الشهابي ، ذكريات اربعين سنة ، ص ١٨ . (٢) راجع في مجموعة « الادب العربي في اثار الدارسين » ، بيروت ١٩٦١ ، دراسة الدكتور محمد يوسف نجم ، الفنون الادبية ، وفيها يتحدث عن سليمان البستاني ،وروحي الخالدي وقسطاكي حمصي ، ص ٣٠٨ وما بعدها ، والشدياق ، وشاكر شقير ، وشاكر البتلوني ، وابراهيم اليازجي ص ٣٣٥ وما بعدها ، ويمكننا ان نضيف جبر ضومط الذي خدم البلاغة آنئذ ، وغيرهم . (٣) في خاتمة الكراس يعدد المؤلف الكتب التي يستفيد الطالب من مطالعتها ، وهي : القرآن الكريم ، نهج البلاغة ، كليلة ودمنة لابن المقفع ، البيان والتبيين للجاحظ ، كتاب الصناعتين لابيهلال العسكري ، رسائل الصابي ، رسائل الخوارزمي ، رسائل الهمذاني ، الالفاظ الكتابية للهمذاني ، الاعجاز والايجاز للثعالبي ، رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، مختارات المنفلوطي ، النظرات للمنفلوطي حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي، البؤساء ترجمة حافظابراهيم، الاجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران ، مجلة الضياء لليازجي ، مجلة المقتبس لمحمد كرد علي ، مجلة الزهور لانطون الجميل . (٤) « احمد شاكر الكرمي » مختارات من اثاره ، دمشق ١٩٦٤ ، مقالته عن مشاهير شعراء العصر ، لاحمد عبيد ، ص ١٢٧ - ١٤٠ . (٥) و (٦) و (٧) و (٨) - المصدر السابق الذكر ، ص ١٢٩ و١٣٠ و١٣٣ . (٩) - يورد دليليه على ذلك ، وهما القولان القديمان : - الشعر كلام ، واجوده اشعره - حيث لا يشترط وزن ولا قافية ، و : - الشعر شيء تجيش به صدورنا ، فنقذفه على السنتنا - . المصدر نفسه ، ص ١٣٤ . (١٠) و(١١) نفس المصدر ، ص ١٣٣ و١٣٥ . (١٢) للفائدة والتاريخ نسجل هنا ، اننا نجد في المصدر السابق الذكر ، ص ١١٩ وما بعدها، مقالة علمية ودقيقة وجامعة يتحدث فيها الكرمي عن الانتحال في الشعر العربي القديم ، نشرت في (الكوكب) القاهرية عام ١٩١٩ ، اي قبل تفصيل الدكتور طه حسين القول في نفس الموضوع بنحو سبع او ثماني سنين .

الحدق المراض

مرضي من الحدق المراض — أولي على الحب اعتراض
بي غلة مكتومة — والوجد يفرضها افتراض
قلبي جناح الطير منتفض — بلقياك انتفاض
وكفى بأني قد ملأت — القلب حبا والوفاض
كم فرصة ضيعتها — يا حبذا لو تستعاض
أنا لا أتوب عن الهوى — ولو اعتلى رأسي البياض

ذكرى الهوى

على ذكرى هواك انا حييت — وحبك لي هو الهم المميت
وحين تقول عينك مت هياما — وشوقا كيف اني لا اموت
وبي جوع اليك فعلليني — فهل لي من شفاهك تلك .. قوت
نعتك بالبهاء وذا قليل — وتخجل منك هاتيك .. النعوت
فعذل بيننا ووشاة سوء — وحساد من النعمى تموت
وحين تطلعت عيناك شوقا — سكت وكاد يرديني السكوت
أحدث ثم اعني الغير قصدا — وغيرك في حديثي ما عنيت ..
فانك خير من نظرت عيوني — وامتع من به يوما حظيت

زحلة ــ لبنان — رياض معلوف

الشعر من النثر ، فلو كانت غير ضرورية لما جعل الناس الشعر فنا قائما بذاته يخالف النثر ، ويفترق عنه .. »

ثم يتابع حديثه في القافية ، فيذكر ان اعداء القافية وحدها من المتأدبين المحدثين كثيرون ، ولكن قليلين من اقدموا على النظم بلا قافية ، ولم يورد أسم احد منهم ، ثم يضيف ، وجاءت منظوماتهم غثة محرومة من تجانس الايقاع ..

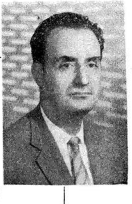
كما يذكر ان النوع الذي يسمونه الشعر المنثور اكثر في نتاج الاد بالحديث من الشعر الموزون غير المقفى ، كما يقول ، وهو نوع قلد به اهله ما يسمى الشعر الحر عند الغربيين ، وقد انكره كثير من علماء الغرب ، ثم يرفض الاعتراف به كشعر (١١) .. لان الشعر في عرف الفن ، في نظره ، وأصطلاح العلماء لا يكون من غير وزن ولا قافية ..

وليس تحليل الشعر الى عناصره ، في هذا المثال بالعمل الجديد انئذ ، انه بالاحرى العمل المتوارث قديما وحديثا ، ولكن الجدة فيه هي في وصل القديم المتوارث بالجديد المستجد ، بناء على رصد ، وتفنيد ..

واما تكريس الصفات الجامعة للشعر ، او للمعاني الشعرية ، وعلى الخصوص ابتداء من مقارنة بين التراثين المتفاعلين وقتها العربي والافرنجي ، فخطوة جديدة حقا ، وهي تأصيلية (١٢) ..

ان الحس البلاغي ظاهر فيها ، ولكنه ظل ممزوجا بالنقد الادبي .. ومن هنا تناوب الوصف والمعيار في الحديث ، او ايضا التقييم والتأصيل ، وفي الحقيقة ، لم تكن الفترة تسمح بأكثر من ذلك ..

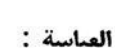
دمشق — عدنان بن ذريل



مشهد من مسرحية العباسة

العباسة وصالحة يتساران

●



العباسة :

ما ضر (جعفر) لو تحاشى ... النار أو حذر الشرر
ما باله وهو الاريب ... يكاد يعثر من عور
من نام قرب النار لم ... يأمن من النار الخطر
ولكل نار حين تعصف ... ما يزيغ لها البصر
وأمرها ما راح ينهش ... في الصدور من الوحر

صالحة :

عجبا أمن داع لهذا ... اليأس والدنيا أغاني
والارض في حلل الربيع ... تدل زهوا بافتنان
في كل سفح للربيع ... وساوس ملء الجنان
وبكل منعرج له ... ما طاب من ثمر الاماني
قيثاره غرد يجل ... عن المثالث والمثاني
ولكم بألوان الربيع ... من الروائع والبيان
احسانه ابدا جديد ... في النواظر كالاماني
ليس الربيع سوى ... ابتسام طاف في ثغر الزمان

العباسة :

ليس الربيع اذا ... تكاثرت الشجون بمسعد
في أضلعي نار يصفق ... غربها كمعربد
ووساوس لا تستقر ... كتائه في فدفد
أخشى غدي وأخافه ... خوف المتاعب من غدي
وأخاف كل نميمة ... من شامتين وحسد
أنا ان جزعت فلم يكن ... جزعي وخوفي عن دد
الناس أشباه الذئاب ... بمنهج وبمقصد
وأرى الجميع لمنكر ... ضربوا بليل سرمدي
يتخبطون وكلهم ... ذئب السريرة واليد

دمشق ... عدنان مردم بك

القس عقل عقل - مصطفى الدباغ

ابراهيم مطر

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ــ القس عقل عقل

في « رام الله » عروس المصايف الفلسطينية ولد « عقل » ودرج في بيت سياجه العلم والادب ، واقبل على اقتناء الكتب والمطالعة والكتابة ، وكان للطبيعة الضاحكة في مسقط راسه أثر بعيد في رعاية تلك البذور وصقل المواهب .

في صيف عام ١٩٣٩ انهى « عقل » دراسته الثانوية في مدرسة الفرندز برام الله وفي عام ١٩٤٠ انتسب للجامعة الاميركية في بيروت ونال عام ١٩٤٧ بكلوريوس في الآداب والعلوم واحرز دبلوما في اللاهوت من كلية اللاهوت للشرق الادنى في بيروت فشهادة في الفلسفة الشرقية واللاهوت من كلية المطران بكلكتا (الهند) .

وفي ١٢ آب من عام ١٩٤٧ اجتمع بالمهاتما غاندي قديس الهند في احدى ضواحي كلكتا ودار بينهما حديث حول مبدأ اللاعنف في ضوء القتال الذي دار عامذاك بين الهندوس والمسلمين واجمل حديثه الودي مع زعيم الهند الروحي في مقال نشرته جريدة « فلسطين » اليافية . وعاد الى فلسطين وطنه برسم المهاتما غاندي موشحا بتوقيعه . وتركت تلك المقابلة التاريخية في نفس « عقل » ابلغ الاثر ، وكان لصورة الشمعة الحية التي لمحها في وجه المهاتما غاندي اقوى العوامل التي ساعدت في تقرير مستقبله .

وفي عام ١٩٤٨ سيم « عقل » شماسا في الكنيسة الانجيلية الاسقفية العربية في فلسطين وعمل في نابلس ورفيديا وبعد عام نقل الى رام الله وتنقل بين هذه وبيت المقدس ، وفي عام ١٩٥٠ سيم قسا وعمل في القدس وبيت لحم ثم نقل الى بيروت عام ١٩٥١ ، وما لبث ان التحق بالجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٥٥ واكمل المواد المقررة لدرجة (الاستاذية) في الفلسفة لكن ظرفا قاهرا حال دون تقديم اطروحته لهذه الدراسة .

من ابرز خصائص هذا القس الوطني صراحة لا تضارعه صراحة ومجاهرة بالحق متى آمن به وحرب على الباطل متى رآه يصول ويعربد واعرابا عن نوازع نفسه شرع في نشر مقالات اتسمت بالتوعية الوطنية وصرخات ارسلها الى الضمير العالمي شارحا هول النكبة الفلسطينية والظلامة التي اناخت بكلكلها على صدر وطنه المغصوب ، وشعبه المغلوب . وما لاحت له فرصة الا اهتبلها لشرح هذه المأساة الانسانية التي لم يرو التاريخ لها مثيلا والتي ستظل لطخة عار في جبين الانسانية حتى يصحح الخطا وياخذ العدل مجراه !

وتعبيرا عن اشواق قومية تعتلج في صدر هذا العربي الواعي اسهم في تحرير طائفة من الصحف والمجلات الفلسطينية ، وحرر في جريدة « فلسطين » اليومية عام ١٩٥٠ بابين هما « حديث الاحد » و « من هنا وهناك » كما حرر ثلاثة ابواب في جريدة «اخبار الاسبوع» هي « في الصميم » و « عند المنعطف » و « ومضات ورعود » بتوقيع (ع.ع) وثلاث زوايا هي « من النافذة » و « دموع واوحال » و « لقطات الاسبوع » بتوقيع « ابو ابراهيم » كما حرر ايضا ثلاث زوايا اسبوعية في جريدة « فلسطين » هي « من حديقتي » و « خواطر توجيهية » و « احديات » بتوقيع « عين عين » وحرر في « جريدة الدفاع » اليومية زاويتين اسبوعيتين هما « على درب التحرر » و « من الفجوة » بتوقيع (ابوا ابراهيم) وحرر بابا اسبوعيا في جريدة « جروزاليم ستار » اليومية التي تصدر بالانكليزية في بيت المقدس بعنوان « تأملات الاحد » واذاع من « اذاعة الشرق الادنى » برنامجا يوميا لاكثر من سنة بعنوان « صباح الخير » كما اذاع من « اذاعة كندا » طائفة من الاحاديث عن الاراضي المقدسة وتراث الشرق الادنى .

وعندما يتصدى هذا القس الواعي للحديث عن القوميات والشعوب يعتز باصالة الانسان العربي وطيب ارومته ويفاخر بتاريخ الامة العربية ويؤمن بوحدتها الكبرى وبتطوير هذه الامة لما هو افضل علميا واجتماعيا لتشغل المكانة الجديدة بها بين الامم المتحضرة الواعية .

واسهم القس عقل مع زملائه الواعين بفلسطين في تعريب « المجمع الانجيلي الاسقفي العربي » وبذلوا الجهد منذ عام ١٩٥٠ فاكتمل تحقيق هذه الامنية القومية عام ١٩٥٨ باستقلال شخصية هذا المجمع عن الانكليز واشراف العرب الانجيليين انفسهم على ادارة شؤونه الكنسية وتصريف اموره الرعوية .

ومن الانصاف ان نقول : لقد تركت النكبة الفلسطينية في نفس هذا العربي المؤمن الواعي جرحا داميا . ففي الثورات التي شب لظاها على ثرى فلسطين انمهج وذووه في اتونها ، وكان بيت والده المرحوم ابراهيم عقل احد ملاجىء الثوار ، وكان شقيقه الطبيب الانساني الدكتور فريد عقل يرتاد الكهوف والجبال ليعالج ثوار بلاده ويداوي جراح المناضلين العرب .

ورغم ما اصاب فلسطين من غصص وآلام ، وما انتاب الشعب العربي الفلسطيني من تعذيب وتشريد ظل القس عقل يؤمن بعدالة السماء وبقهر الظلم وعودة الحق الى نصابه . وانبرى يذكي في نفوس مواطنيه شعلة الامل ، ويخاطبهم بمقالات تفيض تفاؤلا بالغد المشرق ، ويؤكد لهم ان الوطن السليب سيعود لاهله ما دام ايمانه بالشعب العربي الفلسطيني لن يتزعزع !

وفي رأي هذا الراعي الواعي ان ما من امة بلغت مرتبة السيادة التامة والمجد المؤثل الا وعانت الكثير .. الكثير .. في مرحلة المخاض.. ومخاض الامة العربية بدأ فعلا بالثورات الفلسطينية المسلحة منذ اعلان وعد بلفور . وقد يعتقد البعض ان مرحلة المخاض هذه قد طالت غير ان الحقيقة ان ساعة الميلاد لم تحن بعد !

وللقس عقل مواقف تاريخية في الدفاع عن القضية الفلسطينية في عدة محافل وندوات عبر الهند واوروبا وكندا والولايات المتحدة ، وقام بثورة عالية ضد محاولة « الكردينال بيا » تبرئة اليهود في المجمع المسكوني الذي عقد في الفاتيكان عام ١٩٦٣ ودعا في المؤتمر العربي المسيحي الذي عقد في اريحا الى عروبة نهر الاردن والابقاء عليه عربيا .

وفي كل محاولة يثير الاجنبي بسبابته التفرقة بين الشقيقين العربيين كان القس عقل حربا عوانا على تلك المحاولات ، ايمانا منه برباط القومية العربية ، وظل يدعو الى وحدة هذين الشقيقين ليقفا بعقيدتيهما السماوية سدا منيعا في وجه اية عقيدة الحادية او فلسفة عادية مستوردة ، فالارض التي كانت مهدا للعقائد السمحاء تستصرخ اهلها ليعيشوا في وحدة ووئام وليظلوا منارة تهتدي بها البشرية جمعا .

والصهيونية ، في رأي هذا القس المؤمن بربه وبشعبه ، ليست فكرة طارئة او نظرية سياسية مستحدثة ، وانما كانت وما زالت تلك

الروح الخبيثة التي بذرت بذرة الغرور في معتنقيها وسلاحهم ((التلمود)) الذي يقول ان بني اسرائيل وحدهم ((شعب الله المختار)) وما عداهم من الشعوب ف ((دواب وبهائم)) !

ولتسترد البشرية روعها يدعو القس عقل كل مؤمن في الشرق والغرب للاجهاز على ((اسرائيل)) هذا الوحش المرعب ، ولا يرى سبيلا لذلك الا باتفاق العرب ووحدة صفوفهم واستغلال طاقاتهم واستثمار مواردهم الطبيعية للقضاء على هذا الداء الخبيث والورم البغيض .

وفي صلاته صبحا ومساء يدعو الله ان يطيل في اجله لتكتحل عيناه بيوم الثار من الصهيونية الباغية المجرمة ، عندما يسهم مع اخوانه في دفع ثمن خلاص فلسطين وتوفير القوة لوحيده ((ابراهيم)) والجيل العربي الصاعد .

من آثاره القلمية : لم يودع القس عقل صفاف الحروف مؤلفا من مؤلفاته المخطوطة ، ولقد اعد كتابين للطباعة هما ، ((ايقاع الجوانح)) و ((عند المنعطف)) .

نموذج من نثره :

((التقى احدهم ذات مساء ، بضرير يحمل مصباحا مضيئا ... فاستوقفه وسأله عن نفع النور لشخص مثله ، فقد حاسة البصر بالمرة

فاجاب الاعمى : صحيح انه لا يفيدني شخصيا ، وانا لا احمل المصباح لنفسي ، بل لغيري ، حتى يراني هؤلاء فيتجنبوا الاصطدام بي .. و .. كم من الناس لهم اعين للنظر ، ولا ينظرون .. وكم من الذين يبصرون فعلا ، لكنهم لا يتبصرون ..

ترى ! اي صنف من المواطنين انت ، يا اخي ..؟ واي نوع من النظرات تحملها عيناك لتوزعها على الاخرين ؟! هل هي نظرة الاخوة والرحمة ، ام الغدر والقسوة ؟ وما هي الاشعاعات التي يبثها بصرك ؟ هل هي اشعاعات الضغينة والمكر والحسد ؟ ام انها خيوط الانسانية البهية ، والرفق والصفاء .. ؟!

ولكن ، من اين هذه الاشعاعات ؟ وهل مجرد العين مصدرها ؟ ام ان هذه ليست سوى مرآة تعكس ما في البصيرة من اراء ودوافع ، وما في القلب من نوايا ونوازع ... ؟!

هذه الاسئلة ، وعشرات غيرها ، خطرت في بالي طيلة الاسبوع المنصرم .. وكان مبعثها اكثر من حادثة عابرة ، او خبر .. فانا شخصيا تعرضت لازمة نفسية عنيفة كنت احاول فيها الصمود امام نظرات غيري المشحونة بالنميمة والاذى.. ولولا مصباح العزيمة والايمان والرجاء الذي رفعته في وجوههم ، لتعثروا بي ، وداسوني دون هوادة تحت اقدامهم الموحلة ..

وفي مدينة عجلون ، اسفت لحادثة سرقة بعض اواني كنيسة اللاتين هناك .. غير ان ما المني فعلا ، هو تطور الحكاية فجاة ، بصورة ادت الى اثارة بعض التحزبات المستوردة ، والنعرات المستحدثة مما نحن في غنى عنه ، ولا قدرة للاسرة الاردنية الصغيرة المتماسكة النامية على تحمله ..

وفي بيروت ، كادت تلك النظرات المستهترة الجانية ذاتها ، ان تصدع بنيان الشعب اللبناني الواحد ، بسبب حماقة تصرف استاذ اجنبي في الجامعة الاميركية هناك .

حتى ولو كان تصرف مثل ذلك الدخيل مقصودا ـ وهذا ليس واردا كما فهمت من مصدر مسؤول ـ كيف نسمح لانفسنا نحن اهل البلد في لبنان ، او اي بلد عربي اخر ، ان نسلك مسلكا عاطفيا ارتجاليا يزعزع وحدة شعبنا ، ويلوث سمعة امتنا .. ؟!

اين البصيرة عندنا ؟ واين دوافع الاخوة في قلوبنا ؟ لقد تعبت ايدي بعضنا من حمل المصابيح في وجوه غيرهم .. اما من نهاية لمثل هذا التعثر الطائفي الرخيص المضني بين مواطن عربي واخر ؟ ام ان ازمة شعبنا العربي ما تزال في حقيقتها ازمة بصائر واخلاق اكثر مما هي تعدد وجهات نظر ، وراء ؟!

من اساطير الاقدمين ، اعتقاد بعضهم ان الكرة الارضية ترتكز على قرني ثور هائل ، مما دفعهم بالتالي ، الى محاولة تفسير الاحداث الطبيعية الطاغية كالزلزال وغيره ، على ضوء وضع الارض الخطر تحت رحمة ذلك الثور ، وبالنسبة لدرجة هيجانه وجموحه ..

واني لاتساءل ههنا ـ في عصر النور والتحرر ، الى متى نقبل على انفسنا ان نربط مصيرنا بهذا ((الثور)) او ذاك ؟!))

نموذج من شعره : في ١٥ ايار من عام ١٩٥١ ، ومن كل عام ، عاودته ذكرى النكبة الفلسطينية المروعة ... ذكرى يوم اسود ... اسفر عن بيع فلسطين العربية بابخس ثمن فانشا هذا الوطني المؤمن يقول بلسان (اللاجيء) المعذب :

وحدي انا وحدي اسيـــر
عبر الدروب الكالحـــه
صوب الربوع الجانحـــه
لا فجر يبدو لا اصيـــل
في هجعة الليـل الطويـل
فاض الاسى عز المصيـــر

وحدي انا وسط الخيـــام
اجتر عار النكبـــة
أشوى بنار النقمـــة
لو يدركون لوعتـــي
ابناء قومي اخوتـــي
حتى متى الحـــر يضام ؟!

هل ياترى بياراتي يوما تعود ؟
هل استوي في قريتي مثوى الجدود ؟
اين عهود القوم اصحاب الوعود ؟
اين اخي ومن سيجتاز الحدود ؟

لا ... لست وحدي في الطريـــق
الله لي خير رفيـــــق
في الفرصة المناسبـــــه
للثار والمحاسبـــه
نحو الديار السائبـــــه
انقض للعود الاخيـــر

٢ ـ مصطفى درويش الدبـــاغ

في يافا ام البذل والفداء ، وعروس التضحية والعطاء ، ولد ((مصطفى)) سنة ١٩٠٨ ولما بلغ السابعة ادخله والده مدرسة ((دار العلوم الاسلامية)) في عهد مديرها عارف البديري . وقد تميزت هذه المدرسة بابناء الطبقة الممتازة فيها وبنخبة من افاضل المدرسين امثال : عارف البديري ، عيسى السفري ، جميل الخالدي ، الشيخ بديع الشرقاوي وغيرهم .

وبعد ان انهى ((مصطفى)) الصف الثاني الثانوي فيها رغب والده في الحاقه بـ ((دار المعلمين)) في القدس لكن صغر سنه حال دون هذه الامنية .. فانتسب لمدرسة انكليزية بيافا واكمل فيهـا تحصيله باللغة الانكليزية ، وبالنظر للنفقات المادية التي يستهدف لها طالب العلم خارج فلسطين عين ((مصطفى)) كاتبا في محاكم يافا وخلال عمله هذا عكف على المطالعة ، فولع بقراءة آثار الاوائل والشوامل والهوامل والمقابسات والامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي والحيوان والبخلاء للجاحظ واثار الاواخر للعقاد والرافعي ومطران وسعيد تقي الدين ، وانصرف الى اكمال تحصيله باللغة الانكليزية ودرس علـى

الشيخ سليم اليعقوبي الشاعر اليافي المعروف مبادىء علم البيان والبديع . وفي سنة ١٩٢٥ صدر «ديوان الزركلي» للشاعر خير الدين الزركلي وديوان « الطليعة » للشاعر المرحوم ابراهيم الدباغ سنة ١٩٢٦ فاستظهرهما « مصطفى » الذي حباه الله ذاكرة عجيبة .

واقبل على قرض الشعر وكانت باكورة نظمه قصيدة رحب فيها بفيلسوف الفريكة امين الريحاني عندما زار يافا سنة ١٩٢٧ فلاقت اعجاب اهل القلم وتقدير اهل الفضل الامر الذي شجعه على نشر منظومه ومقالاته الادبية والنقدية عن شعرائنا المعاصرين في امهات صحف يافا .

وفي سنة ١٩٣٢ فتحت مجلة « ابوللو » لصاحبها الدكتور احمد زكي ابي شادي صدرها لشعر الدباغ وانتخبته « جمعية ابوللو » الشعرية عضوا فيها وانبرى ينشر مقالاته في « السياسة الاسبوعية » القاهرية وفي « الفجر » اليافية . وقد اتسمت بالوان نفسانية ووجدانية . وفي سني الحرب العالمية الثانية اشرف على تحرير الصفحة الادبية في جريدة « الشعب » اليافية والصفحة الادبية في جريدة « الحرية » اليافية ، ونشر مقالات تناول فيها شعراء فلسطين بالاضافة الى ابحاث اجتماعية وادبية .

وخلال عمله في محاكم يافا التحق بمعهد الحقوق في القدس ونال الشهادة سنة ١٩٣٤ وعين رئيسا لكتاب محاكم الصلح بيافا ، وقبيل انتهاء الانتداب نقل رئيسا لكتاب المحكمة المركزية في نابلس وبعد توحيد ضفتي الاردن عين رئيسا لمحكمة بداية نابلس ومنها نقل قاضيا لطائفة من مدن الاردن الى ان استقر قاضيا في محكمة الاستئناف بالقدس . وفي عام ١٩٦٥ احيل على التقاعد فبارح بيت المقدس الى عمان واتخذها مقرا له .

من اثاره القلمية : كتب « مصطفى » الكثير من المقالات والفصول ونظم عشرات القصائد لكنه افتقدها في مكتبه بيافا وقد آل امرها الى اليهود ، ورغم النكبة النكراء التي اجتاحت الوطن المغصوب قدم « مصطفى » للخزانة العربية :

١ ـ وحي الشاطىء : مجموعة من المقالات الذاتية .
٢ ـ من الاعماق : مجموعة من المقالات الوجدانية (مخطوط) .
٣ ـ وحي اليراع : مجموعة من قصائده (مخطوط) .

نموذج من شعره : نظم « مصطفى » قصيدة مطولة بعنوان «ميلاد الهدى» وفيها يخاطب النبي العربي الكريم بقوله :

يا ايها (الهادي) انرت جوانحي ... واثرت فيها شعلة حمراء
ملك اليقين مشاعري فسالها ... لهبا وفجر دمعة خرساء
طوفت في الماضي وفي احلامه ... وجلوت منه الحكمة الغراء
لما غمزت الشرك في داراته ... وهدمت من نظم الضلال بناء
سلوا عليك من العزائم صارما ... وسللت من نور الاله سناء
فاذا السنا يقتات من شهواتهم ... ويذرها فوق الثرى اشلاء

ومنها :

من كان يدرع العقيدة مغفرا ... ويريق في جنباته الاضواء
لان الخديد له وطامن صاغرا ... وجلا يجر ذماءه استخذاء

ومنها :

كالدوح يهزأ بالعواصف سامقا ... لا خاشيا برقا ولا انواء
مد الظلال على السماء تطاولا ... فكان في كبد السماء سماء

ومن قصيدة مطولة بعنوان « انغام حزينة » انشد الدباغ :

اين الغد المخبوء سر دفينه ... علي ارى فيه شعاع حياتي
واطل من يومي على مكنونه ... فاصول مجترئا على غدواتي
ايـن الحقيقة انها عصافة ... مثل الرياح الهوج في الفلوات
وتمر في اعصارها مجتاحة ... امل النفوس وجامح الخطرات
ولكم قبضت على الرياح فلم اجد ... غير الفراغ يفيض من قبضاتي
كم في الرياض ازاهر منثورة ... جذابة النفحات والبسمات
مد الردى في جوفها اشواكه ... وبثغرها الملثوء بالضحكات
فذوت على الاغصان وهي ضواحك ... بعد امتلاء الروض بالنفحات
ومنى من الامال كان لها صدى ... في خاطري تجري وفي نبضاتي
اتوسم البشرى وبارق ثغرها ... يا ليت تدنيني لها خطواتي !!
فذوت كزهر الروض في ريعانه ... بين النحيب وواكف العبرات !

ومن مطولات الدباغ قصيدة بعنوان « ابن زيدون » الوزير والشاعر الاندلسي ومنها :

وطوى الهضاب الى ربى اشبيلية ... وجلا بأذيال الدجى يتعثر
والريح تصفر في الفلاة ملاحنا ... غضبى ، تثير السافيات وتزأر
في كل هامسة يحس يد العدا ... فرقا يخاف من النسيم وينفر
حتى اذا طلع الصباح بشائرا ... والنجم في اوج السماء مبعثر
لمح الفتى اشباحها وراى بها ... املا على قنن المآذن يسفر
فدنت تميط له القباب لثامها ... وعلى غدائرها المنى تتحدر

ومنها :

من كان في طلب العظائم همه ... ومن العظائم ما يجل ويكبر
فالحب يدفع للسوامق والذرى ... من كان في يوم السباق يقبر

نموذج من نثره : « وكان الفتى مستغرقا في عمله ، ذلك العمل الرتيب المرهق يقف بينه وبين امانيه في الحياة فيقطع اندفاقها في تيارها ، وكان صراع بين نفسه وبين ذلك العمل فهو من عشاق الحرية الطليقة في اقصى حدودها ، وعمله يقف سدا امامها ، يكبح من اندفاع امادها . وفي كل يوم تحتدم المعركة بين الحرية الطليقة والعمل المحدود ، ويسقط الفتى صريعا مسجى تتساقط نفسه الما ، وتتنزى حسرة وكمدا وانه ليشهد الحرية الصريعة في نفسه وغير قادر ان ينشلها من هذا العنت والارهاق وتلمح اثار قلبه الدامي ، وحريته الصريعة مرسومة على وجهه ، وفي الحركات المرتبكة التي تصدر عنه ، وتلك الاشارات واللفتات الغريبة تحمل في مطاويها الالم والحرية الذبيحة التي فقدها في سماحة طفولته وعنفوان شبابه .

وكم يرى مستغرقا في عمله ، وتقف امانيه في حسرة واكتئاب تندب حظها العاثر الضائع في اضابير الملفات ، وبين هذه الاوراق التي علاها الغبار ، تحمل من عنفوان البشرية الوانا متعددة ويأبى مدادها الاسود الانطماس او التلاشي في عالم اللانهاية ، لان عنفوان البشرية العابس ، وقساوتها الحمقاء اشد حلوكة من هذا المداد الاسود ، تمونه بالسواد كلما شامت منه بارقة انطماس او خلجة انكماش ...

وكان الفتى يلمس مهازل الحياة تتصارع في عنف ، ثم تلتقي متكدسة في مجرى ديوان عمله ، ثم تتجمع اوراق وصحائف بيضاء ، او صفراء ، فيهزل مع الهازلين ، تارة تراه متهكما من مرارة الحياة ، وتارة مشفقا ورحيما ، وطورا غاضبا صاخبا ، وتارة لا مباليا ، فكأنه وقد التفت الحياة امام عينيه ، ولمسها بحسه واسفرت له عن كيانها المحجب ، ووصل الى الصميم من عمقها ، لم يجد شيئا امامه ليجيل فيه عينيه وقلبه وعقله اخذ يتهكم ويهزل ، ويسلق الناس بالسنة حداد.

كان هذا الفتى مرهف الحس ، شاعري القلب ، والفؤاد والمزاج ، يتألم للنفوس الصريعة الضعيفة تهزم وهي مدحورة امام القوى العنيفة التي تعاركها في ميدان الحياة فيتألم لهذا الصراع العنيف ، ولهذا الاجتياح الكاسح ، فيقف في صف الضعفاء ، يدافع عن الحرية المسلوبة ، امام القوى العنيفة ، يمد لهم يد المعونة في رفق وفي السراء والضراء ، وكان نفس الانسان تأبى جبروت المتظلم في الغير يندفع وراء الضعفاء فيسلبهم الحرية والهناء ، فتقف المروءة موقف المدافع ليرد للضعفاء حقوقهم المسلوبة وارادتهم المغتصبة . وانه لمستغرق في احلام يقظته ، ومندفع وراء التقاط صور نفسه مختالة في حلمها اللذيذ المؤلم ، فاذا بصديقه الغائب عنه ، والذي تجافاه مدة عامين ، يقطع عليه حبل احلامه بقرعه باب غرفته ، ويحدق الفتى ببابها فاذا بوجه الصديق صديق الشباب والحياة الطليقة ، صديق الادب والشعر يحييه تحية العاتب الخائف من صدمة نفسية يخبئها القدر في كمه ، ثم ينثرها في وجهه . وفي التفاتة بارعة نسي الفتى ما كان مصدرا للجفوة فانطلق يحيي صديقه تحية ايناس ومحبة ، وتعانقا بحنان ورفق ، وقد ضم عناقهما ذكريات حقبة من الزمن لما فيها الحياة

واندفعا في بحرها الطامي يعبان من صفوها ومن كدرها ما شاءت الحياة ان تدفع به اليهما ..

وجلس الصديق الى جانب صديقه ، وكان صمت عجيب ينطق بحديث يتألق حيوية ، يقف في ساحل الشفاه تتلمس الانسراب فيطويه الخجل فيرتد صارخا متماسكا يندفق في لحظات الصمت قويا متدافعا ، تنطق به العيون والانفاس الحارة والوجوه الصامتة المتكلمة .

وشاء الفتى الا ان يعاتب صديقه عتاب الصمت ، وكانت به سجاحة والمعية فأخذه الى مشرب في اطراف المدينة تحيط به حديقة غناء ، وكانا يختلفان الى هذا المشرب الانيق الذي ركبته يد فنان صناع ويقضيان فيه اوقات لهوهما مع لداتهما يتنادمون على عزف الاغاريد ورقص القيان ، وكانت الموسيقى المحزنة والطروبة تلمس الشغاف من قلوبهم ، وهم ما بين راوية للشعر والادب او مبتكر نكتة ، او محدث تصغي له الانفاس والقلوب .

وهناك بين ظلال تلك الحديقة الغناء ، اخذت الذكريات القديمة تطل من مرقدها ، تلحنها اغصان الاشجار الوارفة والاوراق النائمة ، وكل شيء في المكان يدعو للبهجة والسرور ، لان اشباح الذكر البهيجة اضفت على المكان وشاحا لطيفا كله سرور ومرح وايناس ، وقد تغيرت نفس الصديقين وغرقا في حديثهما ، وانهما لكذلك واذا بالقادم يسأل صديقه في لطف وحذر قائلا : لقد كنت اشعر بالانقباض والوحشة قبل ان احضر الى هذا المكان ، ولكنني يا صديقي سرعان ما انداح هذا الالم عني ، حين حضرت معك الى هذا المكان احسست بالسرور وبلفتة غريبة ازالت من نفسي غشاوة الالم ، فتفتحت كما تتفتح الوردة في ظل الفجر وهو يبتسم لها ويداعبها برفق ليطلق حريتها الحبيسة من اغلفة البراعم والاوراق . ولا اعرف لهذا الامر سرا فهل للمكان والذكريات علاقة في هذا الامر ؟!

فقال الفتى : لقد شعرت مثلك وانا في هذا المكان بانني خلقت من جديد ، وانني رجعت الى مطالع شبابي ونزعت عني ما ران عليه من اعوام جديدة ، والان اؤمن بدورة الزمن العكسي فاني الان ابن الامس الضحوك الثنايا الجاثم في اطواء نفسي ، لقد طردت مني الاعوام الجديدة وتقلصت بالامس فعاد ، الامس حاضري ، واني لاؤمن بالمكان وفي مطارح الذكريات القديمة الضاحكة ذكريات الشباب العاتب الضاحك المتفتح للحياة ...

ان المكان والذكرى تأسر الحاضر ، وتحيي الامس ، واني لاؤمن بالزمن وانطلاقه في بحر هذا الوجود ، فهل يرسل الذكريات من مراقدها سواء كانت عابسة دكناء ، او ضاحكة زهراء وذكريات الالم يهيجها الزمن في اعماقنا اذا دقت ساعة ذكراها في النفس ، وتعمق الذكرى في النفس وتتجسد فنلمسها في الحاضر تطوف فوق بحره الطامي وتخلق النفس خلقا جديدا .

لقد استغرق الشابان في حديثهما واستعرضا ذكريات الامس وعاشا في متحفه البهيج ، وتفتحت امامهما الحياة كما تتفتح الليلة المقمرة عن قمر زاهر ونجوم سواطع تتلألأ في اجواء هذا الفضاء الرحيب . ثم دلفا الى خارج المكان فاذا بوحشة غريبة تمس نفسيهما مسا عنيفا وارتد الحاضر في يده معول ليجتث الذكريات القديمة ويبتلعها ، فانسرب الامس الى عالم الابد ، الى عالم النفس السحيق مختفيا عن العيون والانظار يشيعانه بنظرات ساخرة وعيون تقذف الشرر ، وبكآبة خرساء تضفي على الليل اشجانا فو قاشجان . »

٣ ـ ابراهيم مطر

من عرف ابراهيم مطر عرف فيه اديبا اصيلا وصاحب قلم خصب اضفى على لغة الضاد طائفة من المعربات وزين رفوف الخزانة العربية بشتى المؤلفات ونقل الى ام اللغات روائع من الادب الغربي .

ولد ابراهيم في بيت لحم المدينة الخالدة وتلقى دراسته الابتدائية في مدرسة شنلر ـ تسمى مدرسة شنلر وتسمى «دار الايتام السورية» وقد اسسها يوحنا لودفيغ شنلر عام ١٨٦٠ ـ ومنها انتقل الى مدرسة شنلر في بيت المقدس وبعد ان تخرج منها انتسب الى دار المعلمين في القدس في عهد مديرها الدكتور خليل طوطح وامضى فيها خمس سنوات ـ ١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ ، ونظرا لذكائه والمامه بثلاث لغات حية هي : العربية والالمانية والانكليزية اختارته ادارة المعارف العامة بالقدس في بعثة الى الجامعة الاميركية في بيروت ونال عام ١٩٢٩ بكلوريس اداب بامتياز في الادب الانكليزي ثم عاد الى فلسطين وعين معلما في ثانوية الناصرة وظل فيها حتى عام ١٩٣٩ ، وبعدها نقل الى يافا معلما للادب الانكليزي في العامرية .

وبعد حدوث النكبة الفلسطينية دعي الى بيروت وعهد اليه بتحرير مجلة « النشرة » التي تصدرها الارسالية الاميركية وادارة مكتبة « المشعل » .

من آثاره القلمية : تقدر الاثار التي تحمل اسم ابراهيم مطر بأربعين اثرا . ودونك اسماء ما اتيح لنا الاطلاع عليه :

(١) الترجمة المختارة بالاشتراك مع حسين غنيم . (٢) مبادىء الترجمة . (٣) الترجمة المختارة . (٤) الترجمة العالية (بالاشتراك مع جميل سعيد) . (٥) الترجمة الحديثة في ٣ اجزاء (بالاشتراك مع فيليب صايغ وفايز الياس) . (٦) كواكب ورواد . (٧) مخطوطات البحر الميت . (٨) قصص من الادب العالمي . (٩) ١٠٠ قصة . (١٠) لغز الحياة (١١) قصة آل مايو (١٢) الانسان ومشكلة الالم (١٣) هؤلاء خدموا الشرق العربي في بدء نهضته . . (١٤) الكتاب المقدس في اللغة العربية . (١٥) واحات الفردوس .

(وابراهيم) احد محرري « قاموس الكتاب المقدس » (وقد صدر في جزئين) بالاشتراك مع الدكتور بطرس عبد الملك والدكتور جون طمسون ، وكتب مقدمة هذا القاموس الدكتور فيليب حتي .

ونظرا لغزارة علمه اسهم في ترجمة « المادة الدينية » للموسوعة العربية الميسرة التي صدرت في القاهرة عام ١٩٦٦ .

نموذج من نثره : « تلاقى نسر وقبرة على صخرة عالية فوق احد المرتفعات فاستهلت القبرة الحديث بتحية النسر ، فقال لها :

ـ كيف تجرأت على مكالمتي وانا ملك الطيور ، الا تعلمين بانه لا يجوز لك مخاطبتي قبل ان ابدأ بذلك ؟

اجابت القبرة : لقد ظننت اننا من اسرة واحدة .

فتطلع اليها النسر بازدراء وقال لها : ومن اخبرك اننا من اسرة واحدة ؟ .

قالت القبرة : ذلك لانني استطيع ان احلق الى العلاء بقدر ما تستطيع انت ، وزيادة على ذلك ان في وسعي ان اشدو ببعض الانغام ، فأطرب من يعيش على ارضنا من مخلوقات ، اما انت فلا تستطيع ان تجلب المسرة لاحد من الناس !

غضب النسر واهتاج ثم قال : لكن لا تنسي ايتها المخلوقة الحقيرة انني بوخزة من منسري استطيع القضاء عليك !

ولما طار النسر حطت القبرة على ظهره واخذت تنتف بعضا من ريشه ، فحلق عاليا ليتخلص منها لكنها ظلت ممتطية ظهره . واخيرا عاد فحط على ذات الصخرة التي طار منها ، ولكن القبرة بقيت متمسكة بظهره ..

ومرت سلحفاة من تلك الناحية فجذب نظرها هذا المشهد الغريب، وللحال استغرقت في الضحك .. فتطلع اليها النسر وقال : اتضحكين مني يا من تعيشين زاحفة على الارض ؟!

قالت السلحفاة : ضحكت لاني رأيتك استحلت الى حصان ، اذ ان عصفورا صغيرا امتطى ظهرك !

فأشاح النسر برأسه وقال : اذهبي في طريقك ايتها السلحفاة ، ولا تتدخلي في شؤوننا .. فهذه مسالة عائلية تخصني وتخص القبرة اختي ! (عرب هذه القطعة عن كتاب The Wanderer لجبران خليل جبران) .

الاردن ـ عمان

البدوي الملثم

الى روح نظير زيتون

لعمرك ما يجدي البكا والتلهف   وهذي سيوف العرب منا تقصف ؟
نهادن دهرا من طبائعه الخنى   ونحن بأخلاق المصائب أعرف
وحقك .. لا أرثيك .. أنت مخلد   على الدهر.. ما دامت هنالك أحرف
فأي حديث لم تجل فيه فارسا   كأن الذي تحكيه در مؤلف ؟
وأي مقال لم تزنه بمنطق   ومن بحرك الزخار كم كنت تغرف ؟
تعيد الى الفصحى مطارف عزها   ولفظك بالمعنى الجميل يفوف
سجعت كما غنى الحمام قصائدا   وأطربت حتى قيل : انك مسرف
وكيف لطير الايك ان يحبس الغنا   ويهدأ مشتاق ويسكن مدنف ؟
وحب بديع القول فيك سجية   وأنت بأبكار القلائد تطرف
مخرت بحور العز ترفع شأنها   وكنت بأمجاد العروبة تهتف
وافنيت عمرا بين طرس وفكرة   وكان سواد الشعب في الجهل يرسف
فأوضحت أبعاد الطريق لسائر   على غير هدي بالمسيرة يعسف
وكنت منارا في الدجنة ساطعا   وكنت مزارا حوله الناس طوفوا
((نظير)) المعالي .. أين منا مجالس؟   وأين الذي بالامس كنا نؤلف ؟
نحقق قولا او نهيم بفكرة   ونحن على كشف الحقائق عكف
أأخلفت عهدا كان بالامس قائما   وأنت عن الصرم المشتتت تضعف ؟
عهدتك سباقا لكل مليحة   فما لك لا تصغي الينا .. وتخلف ؟
وقفت على ((العاصي)) وفي الحلق غصة   وكانت بنات الفكر حولي ترفرف
أسائل عمن أثلج الصدر قوله   ومن كان من روض الازاهر يقطف
فجاوبني ((العاصي)) الاسيف وقال لي: على مثل هذا البحر نأسى ونأسف
وساقية عند ((الدوير)) (١) لقيتها   تفلسف من معنى الهوى ما تفلسف
تجوب بأطراف الحقول حزينة   وتلفحها ريح من السقم حرجف
تسائل عن الف أحب أنينها   لذاك عيون الماء تبكي وتذرف
وسرت مع الصفصاف أسمع همسه   فكان عن الاسرار والصحب يكشف
يقول : مضوا واستودعوني رسائلا   تكاد بها نفسي من الحزن تتلف
فوا أسفا اذ فرق الدهر بيننا   وواحسرتا مما الليالي تكلف
أخي .. ان ما أبغيه دمعة شاعر   على جدث بالطهر والصدق يعرف
توسدت أحجارا رجاها ((نسيبنا))(٢)   تحن على الكتاب منا وتعطف
فيا ظلها برد ثرانا فانما   حجارتها السوداء أندى وألطف
ويا نسمة هبت من ((الوعر))(٣) خففي   يكاد لهيب الشوق في الصدر يعصف
ويا ((حمص)) ان غاب البنون عن الحمى   وأطفئت الانوار والناس اوصفوا (٤)
هنالك في دار الخلود لقاؤنا   فلا كبد تشقى ولا القلب ينزف

(١) متنزه قرب حمص . على ضفاف العاصي . (٢) هو الشاعر نسيب عريضة . حيث يقول :

يا شوق قد طال البعاد عن الوطن   هل عودة ترجى ؟ وقد فات الظعن
عد بي الى حمص ولو حشو الكفن   واهتف : أتيت بعاثر مردود
واجعل ضريحي من حجار سود

(٣) متنزه قرب حمص طيب الهواء ، طالما تغنى به الشعراء . (٤) أوصف : سار مسرعا ..

حمص   عبدو مسوح

كانوا ثلاثة جنود اسرائيليين مسلحين وقد ارتسمت على وجوههم امارات السخط والحقد . مشوا على الحجارة الملساء المرصوفة بها الطريق الضيقة التي كانوا يسيرون عليها — الطريق المؤدية الى دار فهد محمود . لم ينسجموا ببياض بشرتهم وزرقة عيونهم ولباسهم ولفتهم مع الجو المحيط بهم . مشوا تحت سقوف تعلوها ابنية قديمة استطاع الزمان ان يفتت وجوه حجارتها ويغشي الابتسام اللامع على صفحتها ويحوله الى عبوس اصفر غامض . ولكنه لم يستطع ان يغير طباع ساكنيها واخلاقهم . ما زالوا اشداء غير يثقون بنفوسهم ويعتزون بعنادهم ويحبون مدينتهم كما يحب احدهم والده وامه واخته او زوجته وابنه وابنته.

واخيرا توقف الجنود الثلاثة بعد ان لفظ احدهم بضع كلمات عبرية واشار بأصبعه الى دار منخفضة الباب قائلا :

— هنا . هذه هي دار فهد محمود

وقال جندي ثان :

— يجب الا يفلت منا هذا الرجل المشاغب . ان الدور هنا صغيرة ومتلاصقة ، فقد يقفز من سطح الى آخر وينجو منا .

وقال الثالث :

— ان رأيته يفر قتلته .

وطرق احدهم الباب طرقا خفيفا. فانبعث صوت امراة من الداخل قائلا :

— من هذا ؟

فأجاب الطارق بلهجة عربية مبهمة:

— انا . افتحي ! (اسرعي !) .

فداخل المراة خوف من لهجة الطارق ، وقالت بلهجة مستنكرة :

— من انت ؟

(ان الصوت ليس صوت رجل عربي)

ولكن الطارق كرر كلمته :

— افتحي (اسرعي ! اسرعي !) .

— ماذا تريد ؟

(لااريد ان افتح باب الدار . انصرف)

فطرق الجندي الباب طرقا حادا قائلا بصوت حاد :

— افتحي ! (افتحي والا كسرت الباب) .

ففتحت المراة الباب جزئيا في بطء ، ثم اطلت على الجنود الواقفين وراءه ، فتراجعت في ذعر وادركت انهم يبحثون عن زوجها . سرحت نظرها في وجوههم متفرسة ثم قالت :

— ماذ تريدون ؟

(ان زوجي ليس في الدار) .

ولكن الجنود لم يجيبوها بكلمة بل دخلوا الدار مقتحمين ، وتفرقوا في ساحة الدار باحثين بأعينهم ، وقال احدهم للمراة :

— اين زوجك ؟

الفدائي

بقلم عبد الحميد الانشاصي

(لا بد ان يكون مختبئا في احدى زوايا الدار) .

فخرج ولد صغير يبلغ السابعة من عمره على أثر سماعه سؤال الجندي، ثم تقدم اليه قائلا :

— ابي ليس هنا . انتم غرباء . اخرجوا لئلا يعلم بالامر حينما يعود الى الدار فيقتلكم .

فتبادل الجنود نظرات مبتسمة .

ثم كرر الجندي سؤاله للمراة :

— اين زوجك ؟

— ان زوجي ليس في الدار .



لقد خرج لمزاولة عمله .

(لقد فشلتم في مهمتكم فانصرفوا من هنا) .

— ما هو عمله ؟

— انه مزارع .

ولكن الجنود لم يصدقوها ، ودخلوا غرف الدار مفتشين في دقة واهتمام فلم يعثروا على فهد محمود . ثم صعدوا الى سطح الدار باحثين فلم يجدوه . ولما هبطوا الى ساحة الدار قال احدهم للمراة :

— اين ذهب زوجك ؟ اخشى ان يكون قد فر من الدار .

فحدجته المراة بعين ساخطة ، وقالت بعد برهة مؤكدة كل حرف لفظته :

— قلت لكم ان زوجي ليس في الدار .

(انصرفوا !) .

فشعر الجنود بغيظ من تصرفها ذاك . وقال لها احدهم مقتربا منها ومحدقا الى عينيها وهو يهز رأسه منذرا :

— سوف نرى فيما بعد .

(سوف ابرهن لك انك تكذبين علي . وبعد ذلك اعرف كيف أعاقبك)

فصاح الصبي :

—الا تصدقوني انا وامي ؟ قلت لكم : ان ابي ليس هنا . اخرجوا !

فهم أحد الجنود بالفتك به . فلاذ الصبي بأمه . فوقفت بينه وبين الجنود لتحميه . ثم ان الجنود خرجوا من الدار وقد ثقل الفشل على رؤوسهم . وقال احدهم لزميليه وهم يسيرون في الطريق الضيق :

— حتى نساء مدينة نابلس واولادها الصغار اجرئاء لا يخشون احدا .

★

كان الوقت ليلا . ظلمة دامسة لفت الاشجار بأجنحتها الغرابية وبسطت شرشفها البني اللون على السهول . وكان فهد محمود يسير بخطى بطيئة ولكنها ثابتة ، وقوية

ولكنها خفيفة ، ومتعثرة ولكنها جريئة . بدا في مظهر متشرد هائم على وجهه ، ولكنه كان في داخله بطلا مغامرا . بدلته بسيطة رخيصة، ووجهه الاسمر قليل اللحم كثير الشقوق ، غير انه يستر تحت بشرته اعصابا مشدودة وعضلات مكتنزة ثم عليها التماع زجاجي انبعث من عينيه الصغيرتين الحركتين كأنهما نجمان متلألئان يلقيان على طريقه ضوءا هاديا . وقد حمل بيمناه حقيبة فيها قنابل ومتفجرات . حصن نفسه بمسدس على جنبه الايمن وبخنجر على جنبه الايسر . لم يسمع لخطواته صوت فقد صنع نعل حذائه من المطاط القوي السميك

مضى عليه وقت طويل وهو يمشي على قدميه وحيدا في صمت وسكون متجها نحو الغرب . قطع الطريق العام الذي كثيرا ما كانت تسير عليه السيارات العربية لنقل المسافرين العر بمن بلد الى اخر . فألقى عليها نظرة متحسرة صحبتها تنهدة عميقة كأنفاس بحر يافا في الليل . ثم مر ببيارة برتقال واسعة فوقف ازاءها مسرحا بصره في اشجارها المظلمة وسياجها الشائك .

(أصوا تمن الداخل : هذه بيارة المرحوم راضي النابلسي . ياللـه ! أهكذا يملكها اليهود ويحرم صاحبها الذي انفق ماله وسني شبابه وهو يغذيها بدم قلبه وعرق جبينه حتى أثمر توافادت ؟ مسكين ! لقد مات من شدة تحسره عليها) .

(منظر في الداخل : يأتي راضي النابلسي بسيارته الفخمة ويقفها عند باب بيارته ، ثم ينزل منها هو واصدقاؤه . وبعد ذلك يجلسون في قصره الكبير الذ ييحتوي على اثاث ثمين وتحف غالية . ثم يتحدثون حديثا طليا ويتبادلون النكات بصدور منشرحة وابتسامات مشرقة) .

وبعد برهة واصل فهد محمود السير ذاهلا مشغول البال ، ثم انتبه لنفسه واخذ يفكر في موقفه :

« ها أنا أقدم روحي لكم يا ابناء وطني . انه لايثلج صدري الا الانتقام لي ولكم من اعدائنا الذين شردونا وسلبونا دورنا واراضينا . ما زالت تلك الدور والاراضي عربية بذكرياتنا فيها وبأملنا العظيم في استردادها وطرد المغتصبين منها . ما زالت ملكا لنا باموالنا وذكرياتنا واملنا . »

★

ـ لقد تأخر ابي في هذه الليلة . انه لم يعد بعد الى الدار يا امي . فماذا جرى له ؟

ـ سيعود قريبا يا بني ، فلا تخش شيئا .



عبد الحميد الانشاصي

●

ـ ان أبي قوي مقدام يا امي .

ـ ما في ذلك شك يا ولدي . وهو شهم ذكي يعرف كيف يعمل من اجلنا ومن اجل وطنه .

ها قد اقترب الفدائي من المستعمرة اليهودية التي يقصدها . لقد خفتت الاصوات من حوله . الناس نيام ولا احد يتجول في تلك المستعمرة سوى الحرس والخفراء . اقترب من مصنع الحلويات الكبير الذي ينتج كميات ضخمة من الشوكلاته والملبس وغيرها . لقد صمم على هدمه .انه الان واقف امام الغرفةالتي تحتويعلى ماكنات المصنع. اخد يتلفت يمنة ويسرة مجيلا عينيه الصغيرتين فيما حوله ليتأكد من ان حرس المستعمرة بعيدون عنه . ولما ايقن ان المكان خال منهم اخرج قنبلة من حقيبته وقذفها في غرفة الماكنات فسمع لها دوي عظيم ملأ الجو رعبا كما ملئت الغرفة كتلا متساقطة من الاسمنت وغيره . ثم انتقل الى مكان اخر من المصنع والقى قنبلة ثانية ، فانفجرت في مستودع الحلويات الكبير ، ثم القى قنبلة ثالثة فنسفت الصالون الواسع الذي يعمل فيه العمال ، فتهدم سقفه محدثا ضجة هائلة . وبعد ذلك القى الفدائي حوله نظرات فاحصة بسرعة غريبة . وفر راكضا مبتعدا عن المصنع . وظل يركض حتى انتهى الى بيارة برتقال ، فقطع بعض اسلاك سياجها الشائكة ودخلها وهو يلهث . وقد سمع صياحا ينبعث من مكان بعيد . أخذ يتجول في البيارة على مهل وهو يرهف السمع.

كانت اوراق الشجر الخضر تتحرك فيبطء في الهواء المظلم كمجاذيف القيت في اليم الى جانب قوارب توقفت عن الحركة . وقد علق بحذائه وحل نشأ من ارتواء تربة البيارة بماء يزيد على حاجتها . الان قلبه يخفق خفقانا عاديا . لقد ذهب القرع الذي سببه الركض في قلبه .

احس بجوع شديد وظمأ . ان الطعام الذي كان في حقيبته تناوله في اثناء الطريق وهو متوجه الى المستعمرة . اعمل فكره برهة ، ثم عمد الى شجرة كبيرة من البرتقال واخذ يتحسس ثمرها وكان اخضر صغيرا غير ناضج . وكلما وقعت يده على ثمرة اقتطفها والتهمها دون ان ينزع عنها قشرها . ثم راح يتجول في البيارة باحثا عن ماء . لم يتمكن من العثور على انبوبة او صنبور هناك . ولكن قدميه غاصتا في قليل من الماء تجمع تحت شجرة برتقال . فانبسطت اسارير وجهه

ارتياحا . ثم انه انبطح على الارض ومد راسه فوق حفرة الشجرة واخذ يعب مما تجمع فيها من الماء . ولما أروى غليله عمد الى مكان احيط بأشجار كثيفة الاغصان وجلس هناك ليستريح قليلا . استراح جسمه ولكن عقله لم يسترح فقد كان يفكر فيما صنع . شعر انه القى عنه حملا ثقيلا بعد ان انتقم من اعدائه الذين سطوا على وطنه .

(اصوات من الداخل : لست ادري لم يتهمنا اليهود بالاعتداء عليهم ويأبون ان نتهمهم بالاعتداء علينا ، ان كنا نعتدي على املاكهم بالهدم والاتلاف فانهم يعتدون على ارض وطننا ومنازلنا وأموالنا بالسلب والنهب . ومهما انتقمنا لانفسنا منهم فانا لا نزال في حاجة الى مزيد من النشاط لاتلاف ما هو اكثر من المصانع ومحطات المياه والبنزين ، ولقلب القطارات) .

(منظر في الداخل : يأخذ الفدائي في رفع قضبان السكة الحديدية عن مساندها ، ثم ينتظر قليلا فيمر قطار بضائع ، وحينما يصل الى المكان الذي رفعت عنه القضبان الحديدية يتدهور ويسقط على الارض . ويهتدي الى مستودع كبير لذخائر العدو فيلقي فيه قنبلة ضخمة فيلتهب بأجمعه وتبلغ نيرانه عنان السماء) .

وانه لفي تصوراته اذ سمع صوت صفارة ينبعث من مكان قريب عن يمينه ، فأيقن ان رجال الشرطة على مقربة منه وانه لابد ان يكون اصحاب مصنع الحلويات قد استعانوا بهم للبحث عنه والقبض عليه . اصبح الان كتلة من الانتباه والاستماع . سمع قلبه يخفق في اذنيه . العالم كله انتقل الان الى الجهة اليمنى التي سلط عليها لاقطة اذنه .

نهض من مكانه في سرعة ، واستأنف المسير . ينبغي له ان ينتقل من ذلك المكان الى مكان اخر بعيد وازداد اقترابا من الشبح الاسود عن رجال الشرطة والا وقع فريسة بين ايديهم ، وبذلك يضيع تعبه سدى فكأنه لم يهدم المصنع وكأنه لم ينتقم من الاعداء . وبعد برهة شق نباح كلب طريقه الى اذنيه ، واذن فان لديهم كلاب الاثر . خفق قلبه خفقانا قارعا . ان كلاب الاثر تساعد رجال الشرطة كل المساعدة على الاهتداء اليه . فماذا يصنع ؟ ركض وركض . ابتعد عن الجهة اليمنى حيث يتجول رجال الشرطة بكلابهم . وكانت بيارة البرتقال التي يركض فيها واسعة جدا ، فلم يدر متى ينتهي الى سياجها فيخرج منها ويختبىء في مكان لا يناله فيه أحد .

نادت صفارة من الجهة اليمنى ، فأجابتها صفارة من الجهة اليسرى. فتوقف منصتا وقد شعر بارتباك وخوف . انه وحيد . لا احد بجانبه يستشيره او يطلب منه عونا . فما عليه الا الاعتماد على نفسه . ايقن انه اضحى محاصرا . الى اين يذهب ؟ لا شك ان رجال الشرطة اهتدوا الى مكانه . محال ان يبقى في تلك البيارة . لا بد ان يخرج منها مهما كلفه ذلك من ثمن . انه مسلح ولكنه لا يستطيع ان يقاوم عددا كبيرا من رجال الشرطة . زاد من سرعة ركضه . ضاعفها . فاصطدم راسه بفرع شجرة برتقال شرسة الاغصان والجذع . وقد علق شعر راسه ببعض اطراف فروعها فتوقف عن الركض لاهثا . ولما خلص شعره راسه من فروع الشجرة شعر ان تلك البرهة القصيرة التي قضاها وهو يخلص شعر رأسه من فروع الشجرة قد حببت اليه الاستراحة من الركض ، فصار يسير متريثا وهو في حيرة من امره . لقد اغلقت ابواب النجاة في وجهه ، ولكنه لم ييأس . فارقه نشاطه الجسدي وقوة رجليه ، ولكن حرارة الامل ما زالت مدخرة في اعصابه وفي تلافيف قلبه ومخه. انه لم يصدق انه في الامكان ان يقع فريسة بين يدي الاعداء . لقد نجا منهم مرارا . نجا في اضيق الاوقات . وهو موقن انه لا بد ان ينجو منهم الان .

سبحت بعض كلمات في الهواء . كلمات عبرية تقترب منه . متى يخرج من تلك البيارة اللعينة ؟ تارة يظن ان سياج البيارة على مقربة من يمينه فيسير يمنة في امل دافق . وطورا يخيل اليه ان السياج عن يساره فيركض في الجهة اليسارية.

وفجأة سمع صوت اصطدام شيء بشيء على مسافة ليست بعيدة عنه . فتوقف عن السير مصغيا . خطر في باله ان رجال الشرطة قد دخلوا البيارة . ثم أطلق كلب بعض طلقات من نباحه المزعج ، فعكر سكون الليل وزاد الفدائي تفكيرا ونفسه تعكيرا . واذن فهم متجهون نحوه ليقبضوا عليه .

وانه لسائر مبتعدا عن مكان الصوت اذ بدا له شيء ضخم اسود فتسمر فهد محمود في مكانه وقد تجمعت قواه كلها في عينيه . يريد ان يعرف ما هو ذلك الشيء الاسود المنتصب هناك . هل هو رجل ؟ وانه ليحدق اذ رأى شيئا فيه يتحرك ، فظن انه شخص يريد ان يطلق النار عليه . فركض الفدائي ثم تسلق شجرة ودس نفسه في لفيف من اغصانها وفروعها . ولكن نظره لم يفارق ذلك الشبح الاسود . انه لم يفارق مكانه . ما زال واقفا هناك كأنه تمثال . والغريب انه لم يطلق عليه رصاصة واحدة كما توقع . واذن فهو ليس رجلا . ليس شرطيا كما توهم . هبط الفدائي من الشجرة الى الارض ، ثم انتزع مسدسه عن جنبه وصوبه الى ذلك الشبح الاسود وراح يقترب منه شيئا فشيئا . لاح رأسه ضخما ، فتوقف عن المسير يحد قاليه . لعله يريد ان يخدعه بسكوته وجموده ليتمكن منه فيقتله. نفد صبر الفدائي : « من انت ؟ » ، غير انه تماسك منتبها لنفسه ،

غربة وارتحال

أنا راحل عبر وادي الضباب	أنا راحل عند كل غياب
أنا راحل لا تسلني لماذا	فاني واياك شلو وناب
سمعيت تعربد في مسمعي	وتغزو الحنايا بما يستطاب
فنمتد روحين في كل قفر	وننأى رفيقين عبر السراب
ونلهث خلف ارتحال يلبي	نداء الحنين وغر الطلاب
فخلت حطام الاماني جميعا	وانت معي طي هذا العباب
تلملم شعثي وتسمو بحبي	فودعت نشوى دروب اليباب
وكان الوداع وداعا غريرا	وكانت رؤاي طيوفا كذاب
فما كنت في ولا كنت فيك	وكنا معا في طريق العذاب
وكنا غريبين نسعى حثيثا	لنغرق غربتنا في التراب

دمشق

سلافة العامري

واكثر من التحديق اليه ، فتبين له انه جذع شجرة صفصاف قديمة كانت نابتة بين اشجار البرتقال فقطع اصحاب البيارة اغصانها واحرقوا جذعها فظل قائما هناك .

هناك جديث بالعبرية في وسط البيارة . وهذا ما جعله يهرع الى شجرة برتقال ضخمة ويتسلق جذعها ثم يكمن بين اغصانها اللفاء . لاح له ضوء كاشف من مصباح يدوي ، فتداخل بعضه في بعض بين فروع الشجرة واوراقها . انهم قادمون نحوه يتقدمهم الضوء الكاشف وكلاب الاثر . وقفت الكلاب على مقربة من الشجرة التي اختبأ الفدائي فيها واخذت تنبح . سلط رجال الشرطة الضوء عليها وعلى الاشجار المجاورة، ولكنهم لم يروا الفدائي فقد غطته الاوراق تغطية كاملة . فانصرف رجال الشرطة من المكان ، ومضوا في طريق العودة نحو باب البيارة . وظل الفدائي مختبئا حتى ايقن انهم خرجوا من البيارة . ثم نزل عن ألشجرة واتجه الى شرق البيارة ماشيا على مهل ، وقد بدأ الاطمئنان يتمشى في اعصابه وعروقه . لم يتغير اتجاهه . ظل سائرا نحو الشرق .

وبعد مضي ربع ساعة وجد نفسه مواجها سياج البيارة ، فوقف يتنفس الصعداء . قطع بعض اسلاك السياج ، ثم خرج من البيارة وقد زال عنه الخوف والارتباك وصفا ذهنه من الافكار المنغصة . انه الآن واقف في مكان خال من الناس والاشجار . وقف في سهل ممتد امام بصره . لم تبد فيه اضواء ولم تسمع حركات . مشى في ثقة وامان واطمئنان . مشى كالقائد الظافر المنتصر . لقد قام بمهمته خير قيام. هدم المصنع الذي انفق عليه اصحابه الوفا من الدنانير . شعر بارتياح عظيم يطرد التعب من ساقيه وقدميه والخوف من قلبه ، ويمطره شؤبوبا من الراحة والفخر . اعتدلت قامته، وارتفع راسه وصدره ، واستردت يداه حركاتهما الطبيعية ورجلاه نشاطهما العادي كأنه لم يعان من المشقات والمصاعب شيئا . لقد زادته المشقات والمصاعب عزيمة وعنادا ، وصمم على تخريب اشياء أخرى غير المصنع في وقت قريب . لم تفز يده بشيء ثمين كما تفوز يد الصياد بالسمك بعد جهد وتعب وصبر وانتظار . ولكنه فاز بالنجاة من اعدائه بعد ان الحق بهم خسارة كبيرة . وهذا اثمن من كل ما يمكنه حمله من الذهب .

انه الان عائد الى بلده سالما من كل اذى . وهناك يدخل منزله فيعانق زوجته ويقبل ولده ، وفي الصباح يسمع ان الجرائد اليهودية نشرت نبأ نسف مصنع الحلويات .

عمان

عبد الحميد الانشاصي

الكهولة بين الابوة والامومة

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

اجمل الشعر ، ما يصدر عن تجربة واحساس ، واروعه ما امتزج فيه الالم مع الحنين ، والحياة الانسانية منذ ان انبلج ركبها ، والالم يتمشى في عروقها واوصالها ، ولهذا نحب الشعر الزاخر بأصناف الالم ، المستمد من اعماق الحياة ، لاننا نطالع انفسنا ، ونتقرأها في صحيفته ، نحب الشاعر المحب ، انقلب حبه الى ثورة عاتية متمردة ، انصبت في شعره وقوافيه ، فلاحت جمرا ملتهبا ، نشعر بحرارة القلب الذي انضجه الالم ، وحرارة الروح المتوقدة ، والانفاس الملتهبة ،يصف اشواق النفس، ورغبات الروح ، منطلقا من الوصف الحسي المادي الى وصف الاحاسيس المعنوية ، ونحب أيضا الشاعر المتألم، من فقد أعز عزيز عليه ، في هذه الحياة ، يصف اثر الألم في نفسه ، وثورة احزان الروح ،واستخلاص العبرة والتجربة ، لان كلا الشاعرين استطاع ان ينظم آلامه شعرا صافيا سائغا ...

ونسر من شاعر آخر ، وصف وقائعه في الحياة ، ووصل الى ما يبتغيه دون معاناة او اجهد ، واذا طلب المتعة والجسد ، وصل اليهما ، عن طريق الحيلة والشيطنة ، دون ان يلهيه الم ، او يثيره رهق ، ولكن شعره ، ووصفه لا يروعنا ، ولا يدخل الى مكان الاثارة في نفوسنا ، لانه لم يجبل بالالم ، ولم يلمس الصراع روحه ، ولا نفذ الى قلبه ، بيد اننا نستسيغ ، هذاالشعر لفنيته ، وقدرة الشاعر ، على تصوير ما وقع له بصدق وأصالة ، وبساطة في السرد ، وطبيعة الانسان في أعمق اعماقها ، تهش وتسر لهذا القص ، لانه يخاطب الفريزة ، وكل ما له علاقة بالفريزة ، ومفاجآتها ، وتحايل الشاعر ، للوصول الى ما يبغيه ، من المتعة ، والجرأة أحيانا والوقوف جهرة امام من يملك الشرف المصون ، فيقتحم عليه حصنه غير مبال ، أقول كل هذا ، يولد الدهشة والاستغراب في القارىء ، لان الشاعر استطاع ان يكشف عن جسارته ، ويرينا جبننا بعد ان تملك غرائزنا ، وليست صور الشاعر هذا ، الا رواية تمثيلية من نوع الفودفيل تتوافر فيها المفاجئات الغريبة الناتجة عن الخيانات الزوجية .. ان أصدق مثال للشاعر المتألم هو مجنون ليلى ، وقيس ، وكثير عزة،وغيرهم من الشعراء العذريين العرب ، والفريد دي موسيه ، ولامارتين من شعراء الفرنجة ، واصدق مثال للشاعر الثاني اللاهي هو امرؤ القيس وعمر بن ابي ربيعة من العرب اللذين نشأ في احضان الرفاهية والدلال ، وكازانوفا ، وموباسان ، من كتاب الافرنج .

واذا كنا نستسيغ شعر الألم في الحب ، فاننا ايضا نعجب من شعر الالم يصدر عن شاعر متألم حقا ، فقد أعز نفس عليه ، واي ألم يفجؤنا ، ويكون أشد وقعا ، من قوة الالم الصاعق يحسه الانسان مفاجأة ، ساعة انتزاع والدته ، او والده ،بضربة من ضربات القدر المباغتة ، وهو في سن الكهولة ، وهي مرحلة النضج ، واستيعاب حقائق الحياة المدخرة في حقيبة تجاربه .. ان الكهولة معرفة وخبرة ونضوج ، وقوة احساس ، وسعة افق ومدارك ، فاذا اصطدمت بالالم الصاعق ، فان وقعه يكون اليما وشديدا عليها ، والطفولة لا تستوعب ألالم ، ولا يعمق في نفسها ، لانها لم تقبض على جذور حياتها ، ولم تتمكن من تثبيت قواعدها في الحياة ،فاذا ما واجهت الألم فانه لا ينفذ الى الصميم ، من عقلها وفؤادها ، ويمر عنها ، دون ان يحتفر له مسالك ودروبا في حناياها ، كما تمر الحمى على الطفل ، فان لذعه الما الا انها لا تلبث ان ترتد عنه وشيكا فينقلب الفتى ، جذلا يطفر الى حياته الاولى حياة المرح والسرور ، دون ان تحدث الحمى ندوبا ، او جروحا في نفسه .

حين فقد محمد الهراوي الشاعر المصرى والدته كان في سن الكهولة ، والهراوي نشأ على الفضيلة ، وترعرعت معاني السماء في نفسه ، ان ضربة القدر الفاجئة هزت مكامن الحزن والالم ، فاهتاجت شاعريته وتدفقت وكتب قصيدته الرائعة «الى امي» يصف فيها امه وكيف كانت ترعاه ، وتحنو عليه طفلا ، فشابا ، كل هذا يملأ القصيدة ، فتشعر بقوة الوصف الفنية ، وبقوة شعوره وحنانه ، وقوة المفاجأة التي اصابته ، ومباغتة القدر ، انك لتشعر باللهب والحزن يسريان في حنايا القصيدة ، بأناة وهدوء كما يسري اللهب في كتل الحطب الضخم ، وليس كما يسري في الهشيم والنبات النذل ، وتشعر بالانسانية الحقة ، والبر والوفاء : يقول الهراوي فيها :

تكشفت للاحداث بعدك يا امي   فيا طول ما القى ، من الحزن والهم
لي الله ، يا اماه ، ما انا بالذي   تعود انيقوى ، على الحادث الجهم
تلمست حزني في المصاب ، وعزني   لقدغابعني في الثرى مصدر الحلم

الى ان يقول :

فقدت ابي طفلا ، فلم ادر ما الاسى   وافقدتها كهلا ، فهد الاسى عزمي
سلوني احدثكم .. عن اليتم بعدها   فان اليتيم الكهل ، اعرف باليتم
فيا ليت ايام الحياة ، وقفن بي   لدى موضعي منها من اللثم والضم

حقا ان اليتيم الكهل أعرف باليتم ، وهذا هو بيت القصيد ، وقد وقع لي وانا كهل ما وقع للهراوي ، فافتقدت والدتي . وعرفت معنى الحياة حين افتقدتها ، واصبت بالحزن الممض الذي يشوي النفوس ، ويلهب الاعصاب ، فانضجني الالم ، وصحوت انسانا جديدا

سهـد

لفقيد الشعر والشباب ميشال نعمـه بمناسبة ذكراه الثانية

فـي الشارع المهجور وحدي ... وحدي علـى أطياف سهـد
الليـل عانـق ظلمتـي ... فتبـادلا بـردا ببـرد
والجـو أقتـم عـابس ... لا ضـوء لا نجمات تهـدي
روحـان ساهـرتـان لا ... يطويهمـا غسـق ويـودي
أنـا والبلاطات الرفيقات ... اللواتـي كـن مهـدي
شبح يمـوج علـى الثرى ... أم طـائف فـي زي مـرد
ألـوى بقبضتـه علـي ... فلـم أبادلـه بـرد
شبـح تـراءى واختفـى ... عجـلا كبارقـة لرغـد
هـن البلاطـات الرفيقات ... اللواتـي كـن مهـدي
أم تهلـل لـي وتغمرنـي ... وتفـرق اثـر بعـدي
لـم أغف عمري فـوق صدر ... خافق فـي فـيء وجـد
لا ، لا أريـد الضوء ، انـي ... أبتغـي الظلمـات وحدي
لكـم النهـار تركتـه ... وتركـت أعمالـي وجـدي
وأود أن ابقـى لصيقـا ... بالحجـارة كـل عهـدي
أن أهـرق الايـام فـي ... العتمات فـي تصخاب حقدي
أن أطـرح الجسـد الجبـان ... واغتدي فـي همس وعـد
فـوق البلاطـات الرفيقـات ... اللواتـي كـن مهـدي

ميشال نعمة

استقرت معاني الحياة الحقة في نفسه ، ان افتقاد الاصل الذي ننبعث عنه ، ينمي عقلية الانسان ، فيسعى لتأصيل جذوره ، واحياء صورة تماثله ، تسير في الحياة ، ترث عنه جميع مقاوماتها ابتغاء للبقاء والثبات ، واذا كـان الهراوي رثى والدته ، وجاد علينا بمعاني الفضيلة والمرؤة والنقاء ، فان ايليا ابو ماضي رثى والده ، بقصيدة ولااعتقد ان سورة الحزن ، كانت تتخايل في قصيدته كما كانت تتخايل في قصيدة الهراوي ، فقد ملأها بفلسفة الموت والجياة ، وغير ذلك من المعاني المألوفة المطروقة ، وأكبر ظني ، ان بعد الدار ما بين الشاعر ووالده ، الابـن فـي نيويورك ، والوالد في لبنان ، وبعد الـزمان ، وعـدم التقائهما ، انقصا من حرارة المصاب في نفس الشاعـر لان الانسان خلق ألوفا ، تتكيف معانيه ، وتسمو وتهبط ، وتفتر حرارة لوعته ، بمقدار ما يتصل بين الحياتين ، من معاني الالفة ، حتى ولو كان المفقود أبا ، ولكـن القصيدة امتازت بملاحة نسجها يقول :

طوى بعض نفسي اذ طواك الثرى عني ... وذا بعضها الثاني يفيض به جفني
ابي ! خانني فيك الردى فتقوضت ... مقاصير احلامي ، كبيت من التبن

ومنها :

فاعظم مجدي كان انـك لـي اب ... واكبر فخري كان قولك : ذا ابني

والبيت الاخير يذكرنا بالمتنبي في رثاء والدتـه ، والقصيدة كلها على هذا النسق ، تفتقر للحزن العميـق والألم الصاعق الذي يطل علينامن خلال قصيدة الهراوي.

انا بحاجة ماسة لقراءة دواوين شوقـي والمطران والعقاد وأبو شادي ومحمد عبد الفني حسن وصيـدح ، والمعلوف ، والدباغ ، والهراوي ، ومحرم ، والبارودي ، وابو الفضل الوليد ، وعدنان مردم بك ، وفارس سعد ، وعبدالله حلاق ، وغيرهم ممن لا تسعفني الذاكـرة الآن باسمائهم . لانها تمثل شعر الحرية والانسانية ، وصدق الوصف ، ودقة التصوير . لقد أذهل شبابنا شعر الفجور والجنس . فهم يتهالكون على قراءة دواوينه ، اقبالهـم على قراءة دواوين شعراء الرفض والسأم ، والموت والغربة ، على مطالعة شعر السياب الذي يستقيه من بئر اليوت ــ والأساطير ، شعر الحزن على الانسانية جمعاء ، وقبل أن نحزن على الانسانية ، علينا ان نحزن على انفسنا ، ونصف حياتنا وصفا دقيقا ، ليجيء شعرنا مبنيا على قاعدة العروبة والاسلام ، يمثلنا على حقيقتنا ، ونضيف الـى حـديقة ادبنا ، أدبا أستصفيناه من حدائق الامم الأخرى ، نتمثله كما تتمثل النحلة الرحيق مـن الأزهار .

عمان ــ الاردن

مصطفى درويش الدباغ



يوسف عبد المسيح ثروة

جيرهارت هاوبتمان والهرم السحري

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

الحديث عن جيرهارت هاوبتمان (١٨٦٢ ـ ١٩٤٦) حديث متشعب واسع ، بحاجة الى دراسة مستفيضة ، وتقص كثير ، فهو علم من اعلام المدرسة الطبيعية في بدء نشوئها ، في القرن التاسع عشر ، وهو رائد المسرح الاجتماعي الالماني ، الذي احتضن قضايا الانسانية المعذبة ، في مختلف وجوهها وصورها ، في حوالك حياتها البائسة ، وفي ألق تطلعاتها الباسمة ، وفي كل شأن من شؤونها . وهو ـ في ذلك كله ـ يصدر عن بضيرة نفاذة ، ومشاعر انسانية سليمة غير مشوهة ، صريحة واضحة ، معبرة كل التعبير عن خوالج الناس الاعتياديين البسطاء المعذبين ، المحكوم عليهم بالشقاء في عالم الشقاء ..

ومع ان ابا جيرهارت كان على بسطة من العيش وبحبوحة من النعمة ، فان الصبي لم يستطع ان يحصر نفسه في نطاق اسرته الضيق فقد كان قلبه الساذج الرقيق قلب انسان حقيقي يحب اخوانهواخواته ـ في هذا الوجود الزائل ـ محبة عميقة شفافة ، تنبىء عن صفاء طوية وسلامة نية ، وصدق احساس . واحساسه بالرفقة الانسانية ـ على تباعد السلم الاجتماعي ـ لم يمنعه من رفقة الطبيعة ـ في جمالها الفتان ومناظرها الخلابة ، بين وديان سليزيا وجبالها الشامخة حيث مسقط رأسه في قرية اوبرسالتس برون بين هذه الغابة الساحرة وتلك .. انه كان يربط بين مشاعره نحو سكان الريف في سفوح جبال اويلن من فلاحين ونساجين وعمال مناجم وبين مشاعره الفياضة نحو سحر الطبيعة وجلالها . فاذا بالنقائض تتجلى امام عينيه ، غنى الطبيعة وكرمها .. وشح ابناء الانسان وتكالب بعضهم على بعض ، هؤلاء يمتصون اولئك حتى القطرة الاخيرة من الدم ، واولئك يسحقون هؤلاء حتى العظم ، واذا بعد الالوف من السنين ، الشرعة الغبية شرعة الظفر والناب ، هي هي ، الاقوى هو صاحب الحق الذي لا ينازع ، والاضعف هو صاحب الباطل الذي يولد معه بالفطرة والمصادفة ، ولا يصبح هذا الباطل حقا ولا هذا الضعيف قويا ، ما لم يستكلب ، يستذئب ، يستأسد ، فينال ما يريد بمشيئة القدر ، اذ الحق هو القوة كما يقول المثل الالماني المعروف ، في عالمنا المنكود هذا ..

والفتى يرى الفوارق بين البشر ، فلا يعرف لها معنى ، هذه اشباح النساجين وعمال المناجم والفلاحين ، تتردد بين بيوتهم الحقيرة، زرائبهم ، اكواخهم وبين المزارع التي يعملون بها على حساب غيرهم والمناسج التي يلازمونها ـ في عمل مرهق اشد ما يكون الارهاق ، والمناجم التي ينحدرون اليها في سواد الليل وبياض النهار ، وهم لا يفرقون ـ في اجوافها ـ بين سواد وبياض ، اياديهم متورمة ، ظهورهم محنية ، قلوبهم ممزقة ، حلوقهم جافة ، انفاسهم مستعصية ، جلودهم متحجرة .. ويرى اهله وعشيرته الاقربين فاذا بالوجوه الصبيحة ، والعيون القريرة ، والجباه العالية والاعطاف الهفهافة ، والبسمات الزواخر بالرخي من معالم الحياة ، والسري من مباهجها ، والشهي من اطايبها ... والكل في المعجم ، اي معجم ، بشر ، اخوة ، بل اشقاء، متساوون في نظر القانون والنظام ، والكل اوراق شجرة باسقة ، سنديانة قديمة واحدة ونقاط محيط واسع واحد ، فيحز في نفسه ان يجد هذه الفوارق ، بهذه السعة من الفتق ، لا يعرف لها مبررا غير المصادفة ، وليست المصادفة ـ مهما تكن ـ مبررا ، مهما يكن هذا المبرر تافها ..الطفل يؤخذ بما يرى وبما يتحسس ويشاهد ويشعر ، فتمتلىءنفسه كآبة وتتفطر ينابيع وجدانه عن مشاعر دافقة ، وعواطف سيالة تمتاز بسمة المشاركة والتعاطف والايثار .. ويمرض الفتى وهو في منتصف العقد الثاني من عمره ، بعد التحاقه باحدى الثانويات في مدينة بريسلاو ويستعيد صحته بعد حين ليجد نفسه وقد سئم الدرس والمدرس والمدرسة جميعا ، واذا به يتعثر في دروسه ، فلا يستطيع ان يجتاز اي صف الا بشق النفس ...

وهكذا يظل الصبي متنقلا من مدرسة الى اخرى من غير ان يحرز نجاحا ما ، في معارج الرقي والتقدم ، فقد واكبه كسله في كل صف توصل اليه ، فلم يستطع اجتياز حتى المرحلة الثانوية .. لكن ذلك لم يمنعه من الانغماس في المسرح ومشاهدة ما كان يعرض على خشبته من مسرحيات كان لها اوقع التاثير في نفسه التي شغفت حبا بالفن المسرحي منذ باكورة شبابه .. هذا فضلا عن فن النحت الذي جذب اليه بتأثير احد اصدقاء اسرته فدخل في سنة ١٨٨٠ في مدرسة الفنون والصناعات في بريسلاو ولكن لم يستمر بقاؤه في هذه المدرسة الا ايماضة من الزمن ، اذ حال انهيار اسرته ماليا دون اتمامه لتعليمه .. فاذا بالشاب يجد نفسه طليقا بين زمرة من البوهيميين يعبثون في بريسلاو ما شاء لهم العبث ، غير ان هذه الحياة لم ترقه طويلا ـ لفوضويتها وانعدام الهدف فيها ـ ففر قراره على الدراسة في جامعة ينا ، وفيها استمع الى خيرة الفلاسفة الطبيعيين ، من اصحاب التطور الدارويني .. وبعد جولة بحرية قصيرة ، عاد الى روما ـ على امل الاستقرار فيها ـ ثم ارتحل بعض مرض الم به الى برلين وهناك تزوج بماري يتنيمان ، ابنة احد تجار درسدن المعروفين ، بمساعدة اخيه كارل ، وهكذا استتبت له الحياة الرضية ، والعائلة السعيدة بعد طول عناء ونصب وكد ، وضرب في الارض ..

ها هو الان وقد تحسنت احواله ، يستعيد قوته الابداعية ، ويمرن قلمه ليواجه المستقبل بمقدرة جديدة ، بعد ان حصل على تجارب كثيرة، في حياته ، فمسيرة الحياة التي اجتازها ، بين رفعة الغنى وذلة الفقر والحرمان ، واختلاف الاحوال والظروف ، وصعوده مرة اخرى الى نجد اليسر ووسعة ذات اليد ، واغتناؤه عن سائر الناس ، هذه المسيرة امدته بزاد لا ينفد وبكنز لا يفنى من الحكمة الواقعية وبمعرفة عميقة عن حياة الناس وواقعهم الاجتماعي ، وبصرته بآفات المجتمع وادوائه ، بالصناعة الحديثة تخلق عمالا ، احتياطيا من الفلاحين المعدمين ، ليعملوا في المناجم ومعامل النسيج ، في احوال وشروط يتعذر على الشيطان ان يجد افظع منها ..

وجيرهارت الامين لرسالة الصدق ، المتأثر بشللر وابسن وزولا ، الذين عرضوا الواقع وعرضوا بكل ما يشوه الحياة من قبح واسفاف وشر ، لم ير مناصا من ان يسري مسراهم ، وهـم السنة الصدق ، واعداء الزيف والتشويه والرياء ، انه تابعهم مخلصا امينا ، لا لانهم سبقوه في جرأة القول والقلب والضمير ، ولا لانه اراد ان يتتلمذ عليهم ، بعد ان رغب عن التتلمذ على المدرسين الاعتياديين ، ولا لانه وجد سبيلهم هينة فاحتذاها ، لا لهذا وذاك ، بل هو فعل ما فعل ، ايمانا بنقاوة قلبه ويقظة ضميره ، وسلامة طويته .. واعتقاده الراسخ: ان الفن كظاهرة اجتماعية تعبير عن واقع حي بارقى صورة جمالية .. ومن هنا ، ومن تأثره بالمدرسة الطبيعية التي كانت في مطلع انبثاقها على عهده ، والتي اهتمت بمنطلقات العلم ، كنظرية التطور وتأثير البيئة في الانسان فضلا عن عوامل الوراثة ، وجعلت همها مركزا ـ في النتاج الادبي ـ في تصوير الواقع الاجتماعي ككل ، والاخذ بنظر الاعتبار الاكيد قاعدة الهرم الاجتماعي السحري ، اي تلـك الطبقة العريضة من عامة الناس ، من العمال والفلاحين والكسبة ، وجميـع المسحقين تحت وطأة هذا الهرم الرهيب .. من هنا ، لا من مكان اخر ، انطلق هاوبتمان كالسيل الجارف يهدد سدود التقاليد والمواضعات .. فظهرت له مسرحيته « قبل الشروق » سنة ١٨٨٩ .. وهي اول مسرحية طبيعية المانية تلتزم حدود المذهب الطبيعي التزاما بينا ، بتصويرهـا الدقيق لفضائح المجتمع وتفسخ افراده وتأثير التصنيع في زعزعة القيم الاجتماعية وخراب الاسر ، بسبب الانحلال الخلقي ، وتضعضع كـل مقومات الريف المحافظة ، من جراء غزوة المال العاتية .. وكل ذلـك باسلوب شفاف غاية الشفافية ، يمتاز بارهاف الحس ، وصدق العرض وجمال العبارة ، وبعد الرؤيا وصفائها ..

فصهر الاسرة هوفمان يمثل الواقعية النفعية تمثيلا صريحا وهـذا ما يحمله على مخاطبة صديقه لوط بقوله : « .. ما سياتي سياتي ! فعلى المرء ان يتصرف تصرفا واقعيا .. وعليه الا يواجه الاشياء بالركض نحوها .. ونصيب جيلنا الراهن كثير من الشر ولكن لا ينبغي لك ان تستبدله بشر اخر اشد خطرا !! اما لوط الذي يحل ضيفا على الاسرة فهو في واد اخر ، واد اخضر ، يانع الخضرة ، زاهر ، باسم » لانـه يعيش في تهويماته وخيالاته ، فهو يجد افظع الصعوبة في ان يحـل في وادينا ، نحن المساكين من ابناء البشر المعذبين ، لانه يجده واديـا مليئا بالاقذاء والزيف والقبح ، ولا سيما الزيف فهو واضح المعالم فيما اعتدنا عليه من عادات واخلاق ومقومات .. وطبيعي ان تكون لهذه الادواء كلها مفعولها في نفسية لوط ، في شعوره بالمسؤولية تجاه اخوانه ، هذه المسؤولية التي يسميها هوفمان « اثما » ولهذا السبب فهو يحث صاحبه على الابتعاد عنها ، لان الانغماس فيها لا بد ان يؤدي الى الهلاك، فالعمال لهم حقوق مشروعة ، ومصالح مقبولة معترف بها قانونا ، وكل مشكلة من مشاكلهم يمكن حلها « من فوق » ذلك انهم ـ اي العمال ـ لا يعرفون صالحهم من طالحهم .. وهذه الثورة من تحت ، لا تعني غير الانزلاق السريع في النكبة » . لانها تنبعث بصورة تلقائية لا يتحكم فيها العقل ولا تديرها ايد قديرة ولا نفوس بصيرة ، فتضيع هباء !

وتحل مناسبة فينفرد لوط بهيلين ابنة المزارع كراوس ، صاحب الضيعة ، فاذا بهما متقاربان في المشارب ، متجاذبان في الوجدان ، متداخلان في الروح ، ومن ثم كان الحديث بينهما سلسبيلا عـذبا ، الغنى يبهر لوط فيقول « الثروة تفيض من ابواب المزرعة ونوافذها » ، فكيف حدث ذلك ؟ حدث ان الفحم اكتشف تحت سطح (فتسدورف) بالمصادفة ، فاذا بالمزارعين الذين كاد الاملاق ينـزع منهم الارض ، يصبحون اسياد الارض وما تحت الارض ، لكن ذلك كله لا يعني شيـئا بالقياس الى هيلين فهي لا تجد في كل تلك الثروة غير فراغ يتضمنه كل شيء هناك ، فالمزرعة على كثرة من فيها من بشر ، مزرعة فارغـة لانها بحاجة الى نفوس صافية وقلوب محبة ، وعقول نيرة تملأ المكان حياة وحركة وانتعاشا وسعادة ..

وفي مناسبة اخرى يقدم هوفمان صديقه لوط لحميه كراوس ، فاذا بالاخير بعد مجاملة متكلفة يقابله بهذه الكلمات : « .. انني اسف لما بدر مني من تصرف . ولكننا نستقبل مرارا وتكرارا سيلا من الافاقين هنا ، انك لن تعتقد ذلك .. انهم صليبنا ، وهم اكثر من ذلك يسرقون ما يقع تحت انظارهم كالغربان . » ويحل وقت العشاء واذا بالسيـدة سبلر صديقة السيدة كراوس المصون تتحدث عن فلسفة الحياة ، عـن اللذة والالم ، عن قيم المجتمع الارستقراطي الالماني ، فتقول : « كـان صاحب المعالي الوزير فون شادندورف يقول : « ان اعظم الخيرات التي يحظى بها الانسان في الحياة هي المدافع والقمار والبنات . » ويعـود حبل الحوار الى الانعقاد بين هوفمان ولوط ، الاول ينتفض مما يتصوره من صاحبه فهو يقول : « انك لن تستطيع ان تجعل مني زاهدا . لان الزهد يسلب كل متع الحياة . » ومع ذلك فهو يعترف ان الانغمار في تعاطي الكحول ربما يقلل من ضبط النفس ، ولهذا فان لوط يقـول : « انك تعترف بان دمان الكحول قد يؤدي الى ضعف الوازع النفسي ، ولهذا فانا اعد هذه الاماسي المخمورة اماسي داكنة باهتة » . ويستعيد لوط ذكرى اسلافه الاقوياء ، الاصحاء ، فيقول : « ان اسلافي كانـوا اقوياء اصحاء معتدلين ، فكل حركة اقوم بها ، كل مجهود اؤديه ، كل نفس اسحبه يذكرني بما انا مدين لهم . ومن ثم فقد عزمت عزما اكيدا على ان انقل هذا الارث الى ذريتي تماما كما ورثته بنفسي » . وفـي هذا الجواب ، يلخص هاوبتمان فكرة تأثير الوراثة ، على حسب المذهب الطبيعي ، تلخيصا بالغ الاهمية ، لانه ينطلق من الاساس الذي انطلق منه كل من دارون العالم ، وزولا الفنان ، فجاء الان هاوبتمان الكاتب المسرحي ، ليضعه على مشرحة العمل الفني ، بصورة عفوية ، متناسبة مع المقام ، متكاملة مع السياق ، في طبيعتها وبساطتها ومعقوليتها .

وتتحدث السيدة كراوس عن هيلين ، ابنة زوجها وعن الكتب التي تقرؤها فتقول : « .. شللر وغوته اثنان من المجانين المتوهين ، اذ كان لهما وجود ، انهما لا يستطيعان ان يفعلا شيئا غير كتابة الاكاذيب ، غير انهما قادران ان يقدما لها افكارا . » واذن فهيلين مجنونة كالكتاب الذين تستوحيهم ، وهي خيالية بعيدة عن واقع الحال ، تريد الحمامة الصغيرة ان تطير من هذه الدار الفاجرة ، حيث الوالـد المبتذل ، وامرأة الاب المنغمسة في الموبقات مع عشيقها « كاهل » لكن اين ذلك النسر الانساني الذي يتمكن من التحليق بها في اجواء الحرية وافاق الخلاص ؟ ها هو لوط يهبط في الدار ، فهل له ان يكون نسرها ، هل له ان يمد لها يد الانقاذ ؟ بيد ان لوط لا يسعى مسعاها ، فهي ان كانت تريد ان تنجو بجلدها ، بذاتها من العذاب المحيق بها ، لا تفعل ذلك الا من اجل نفسها ، ولهذا فنضالها نضال شخصي بغية سعـادة شخصية ، على حين ان لوط لا يكتفي بذلك فهو يريد الخلاص للجميع ، لجميع الانسانية من عذابها المقيت ، وهذا ما يجعله يقول : « انـا لا استطيع ان ارى ما يحيط بي من مرض وفقر وعبودية ودناءة .. واذا لم يكن كل من حولي راضيا ، فهيهات ان ارضى . » وما علة كل ذلك ؟ علة كل ذلك هو زيف الاشياء ، وهنا تتساءل هيلين : « هل لك ان تعطيني امثلة على هذا الزيف ؟ » فيجيبها لوط : « حسنا ، مـن الزيف مثلا ، ان يجوع الانسان الذي يريق عرق جبينه فـي العمل ، ويحيا الانسان الكسلان في وفرة من غنى العيش والمال ـ القاتل في ايام السلم عرضة للعقاب وهو في ايام الحرب جدير بالثواب . » ويمضي لوط محللا ما عثر عليه بالتجربة ، وما استقاه من الكتب ، وتمضـي هيلين تصغي اليه بكل نفسها وقلبها ووجودها ، ويصيبها الرعب والارتباك والانبهار مما تسمع ، فلا تكاد تصدق اذنيها ، ولهذا السبب يعترف لها لوط بالحقيقة المرعبة ويقول : « لو ان المرء يعرف كل ما اعرفه انا اذن صدقيني لظل شيء يسير من راحة الضمير وهدوء الفكر . »

ويشتد البوس في قلب هيلين وتجد نفسها ذات مرة مع صهرها هوفمان فتحدثه بذات نفسها وتقول : « .. امرأة اب فاجرة ، تريدني ان اتزوج عشيقها .. هذه هي الحياة هنا .. كلا ليس من حق اي كان ان يجبرني على تحطيم حياتي . » ويستدرجها هوفمان الى ما يريد فيقول ، « كلانا في المصيبة سواء » ويمد ذراعيه اليها فيقبلها ، ويطلب متوسلا ، ان تحل محل اختها في تربية ابنه ، وتنغلق حلقة هذا الاستدراج واذا بالنوايا السود تكشر عن انيابها وشياطين الشهوة تتنزى ، فترده ردا عنيفا وتصرخ في وجهه : « انهم ـ تعني اصحاب البيت ـ اطفال بالقياس اليك ، هذا ما اراه واضحا وضوح النهار . » فيتظاهر هوفمان بالغضب ويقول : « هيلين ، هيلين ، انت لست في وضعك الطبيعي ، كل هذا ليس الا جنونا . » ويومىء بالاشارة والعبارة الى لوط ، فما تسمع هذه العبارة حتى ينفجر غضبها عارما صارخا : « لم لا يكون لنا الحق ان نتحدث معا ؟ انه انسان ليس احدنا جديرا بان ينظر في وجهه ، لو كان في العالم عدل وانصاف » الا ان هوفمان يعزو هذه الجاذبية المنبعثة من لوط الى طلاقة لسانه التي تدير ليس رؤوس النساء فحسب بل رؤوس الرجال العقلاء ايضا .. فهو يملأ رأس الانسان بافكار خيالية تدفعه دفعا الى متاهات والى مناهضة التقاليد والاخلاق بدعوى الحرية والاخاء والمساواة .. وطبيعي ان تكون مثل هذه الافكار الخيالية عند هوفمان اخطر من السرقة وامعن شرا منها .. ويسعى هوفمان للالتقاء بلوط فيكون له ذلك ، ويحاول ان يخدعه بما تيسر له من خدع فيقول له مجاريا اياه : « ساكون اخر شخص يقف في طريق المطاليب المشروعة ، التي يتقدم بها المضطهدون والمستغلون . » ولكن لوط ليس من هؤلاء الذين يخدعون ، انه يجيب صاحبه : « من المؤكد ان واجبي تجاهك بصفتي صديقك لا يعني خيانة قضيتي » وعند هذا الحد من المكاشفة ، يسقط برقع المجاملة من وجه هوفمان فيقول : « بصراحة ، ان تظاهرك بما تتظاهر به يثيرني ، كما لا تثيرني اشد الوقاحة صلافة . »

ويقسو هوفمان على صديقه لوط قسوة لا تدع للصداقة مجالا فيعيره انه هو الذي يغري عمال المناجم بالمشاكسة وعدم الرضا ، وبالمرارة والثورة والخروج على الاداب والاخلاق والمدنية وبانه ينسج قصصا لحظوظ من ذهب يعدهم بها ، وفي الوقت نفسه يبتز قروشهم الحقيرة التي يجهدون على توفيرها . وتأخذ الصلات بين هيلين ولوط في التلاحم والتقارب بمرور الايام ، حتى يغدو لوط وكانه لا مفر له من ان يسقط في فخ الحب الذي وضعته له هيلين بكل لطف وبساطة وحب . امور هيلين تجري على حسب ما تهوى وتشتهي ورغباتها تتحقق رويدا رويدا وهي لذلك فرحة مرحة كالطائر الذي يجد عشه بعد هجرة طويلة . وبينما الايام تجري رخية ، اذا بحظ هيلين ينقلب ظهرا على بطن ، واذا بالقدر ينصب لمن ينصب الشباك شباكا ، ويحل الدكتور شيمل ضيفا على الاسرة ، كما حل قبله لوط ، ويلتقي الصديقان الحميمان بعد طول فرقة ، ويطلع الدكتور على جلية الامر في دار كراوس ، فيندهل مما يجد ويتمور ويسر صاحبه لوطا بما في دخيلة نفسه اثر انطباع ما انطبع فيها ويقول : « قصة هذا البيت قصة شرب طويلة وشراهة وفجور في المحارم . » ويستمر في اقتلاع ازهار الحب واحدة واحدة من بستان لوط ، وزرع شوكة في مكان كل زهرة ، فاذا باليقين الثابت يبدأ في التزحزح فالتزعزع ثم الانهيار والتلاشي ، ها قد استطاع العلم من خلال الدكتور ان يصرع الشاعر في قلب لوط ، وهذا كله ما شعرت به هيلين بمرارة وحنق ، واستباقا للاحداث نراها تنذره بقولها : « .. الفريد لا تدعني هنا ، لا تهجرني ، فكل شيء سينتهي اذا ما تركتني و ذهبت . » بيد ان هذا الانذار لا يأتي بثمرته المرجوة لان الصلات بين الدكتور ولوط تشتد متانة بمرور الوقت وتتسع اذنا لوط لسماع صاحبه واذا بالاخير يقول وقد احس بما بين هيلين ولوط من علاقات : « ما اسخف الامر ، وتبني حياتك الزوجية طول العمر على ذلك ، اذن خير لك ان تبني على الرمل » . ويعقب لوط على ذلك بقوله : « هل تتصور انني اجد في من احب ملاكا تحيط به هالة ؟ » ان لوطا لا زال يتشبث بهيلين التي اصبحت بحكم الوضع الجديد جزءا من وجوده ، فهو لاول مرة قد عرف ما كان فيه من برود وميكانيكية وجفاف ، وما كانت عيه جهوده من انعدام الروح والمزاج والفعالية .. لكن هذا التغير الذي احسه بوجود هيلين الى جانبه ، لم يعد سوى سحابة صيف ، فما هو الحب والامل والرجاء غير خرافات وخداع ودجل ؟ وكلها مخدرات تعطى من حين الى حين للانسانية المعذبة كي تكون الامها محتملة . ويحاول لوط ان يقوم بشيء يخلص سفينته من الغرق ، بان يتشبث بحبل هوفمان الذي ما زال متينا ، ولكن سكين الدكتور الحادة تقطع عليه هذا الرجاء ، فاذا به يقول : « انك لا تعرفه (يقصد هوفمان) معرفة جيدة . لم تمض الامور الى حد تدميرها (يقصد هيلين) ولكنه بالتوكيد قد لوث اسمها ،فالشخص الذي يتبع هوى نفسه ولذتها قادر ان يفعل كل شيء . وعند هذه الحجة تنهار مقاومة لوط ، ويصبح امر ارتحاله وحيدا من الدار مسألة وقت لا غير ، وتحين الساعة ويدلف لوط الى عربة شيمل ويرحل الاثنان ، الاول وقد فاز بصديقه والثاني وقد فر من من وضع فيه كل امله .. وتدرك هيلين ماذا حدث بعد ان يخبرها الخادم بالحقيقة ، وتدخل الى غرفة هوفمان الفارغة ويسمع صوت وينقطع نفس ، وتنغلق ابواب الدار وتصطفق ، ويشتد انين الخادم وينفجر ولكن كل ذلك لا يهز وترا في نفس كراوس الذي يظل مترنحا في مشيته وصوته الوحشي المخمور يملأ البيت : « اه ، هي ـ الست املك زوجا من الفتيات الحلوات ؟ » ومع صدى هذا الصوت الإبح ينتشر صوت ملائكي مخنوق ، انه صوت هيلين الذي لم يعد له مجال ـ في هذا البيت ـ غير الانطلاق من سجنه الذي ضاق به ذرعا ، بعد ان ترك جثة هيلين الهامدة فيختلط هذان الصوتان اختلاط الشر بالخير ، في هذه الدنيا التي لا تنتهي من رقصة مجنونة ، الا لتبدأ باخرى اشد جنونا من سابقتها ...

مسرحية النساجون

ولننتقل الان الى «النساجون» فماذا نجد ؟ نجدها طرفة واي طرفة من حيث انها اول مسرحة تعالج حدثا معينا هي تمرد النساجين في احدى قرى سليزيا سنة ١٨٤٤ ابطالها ابطال اعتياديون ، من عمال النسيج الذين يشعرون فجأة بآدميتهم تعود اليهم ، فينتفضون على الظلم والاستغلال اللذين يقاسون منهما الامرين ، فما يعود ثمة ذكر للابطال الاسطوريين ولا للسادة النبلاء والكهنوت الارجواني .. ها هم الناس المظلومون ـ ولاول مرة على المسرح ـ يدركون تمام الادراك ان جلودهم تسلخ واتعابهم تباع بارخص من التراب ، وحياتهم تهدر بين الانوال وظهورهم تقوس ، واعمارهم تقصر ، وهم لا يكادون يجدون بلغة العيش ، انهم يتنقلون من مذلة الى مذلة صابرين يتصببون عرقا ومسكنة وشعارهم يقول « من يحسن نسيجه تحسن حياته (1) » بحثا عن شيء من النقود « الذي تهترىء جلود ارجلهم بحثا عنه » . وفي كل مكان يطفح البؤس ويضرب الفقر باطنابه « فاذا المصائب يقفو بعضها بعضا » وماذا عن ساعات العمل في هذه المصانع والشروط الصحية ؟ ساعات العمل غير محددة ، وكيف يمكن تحديدها ولا قانون في البلد ولا نظام .. اذ كل شيء متعلق بمروءة صاحب المصنع .. يريد ان يعمل العمال كل النهار وقسما من الليل ، فيعمل العمال ـ على وفق ما تشاء ارادته .. وعن الاجور ، من يحددها ؟ ليس من حق اي كان ان يحددها غير صاحب المصنع ايضا ، لانه رب العمل والعمال معا ، ولما كان من صالح رب العمال ان تكون ساعات العمل طويلة والاجور واطئة ، فينبغي ان تكون الحال كذلك ، والا فالعمال احرار ، في كل شيء ، في ترك العمل والالتجاء الى الغابات واكل البقول البرية والبلوط ، وهم احرار ايضا في الموت جوعا !

شخوص المسرحيــه كثيرون ، ولكن المهم منهم على التحديـد : درايسفر ، صاحب مصنع الاقمشة القطنية والناظـر بفايفر والاب كيتلهاوس وهايده قائد الشرطة ، والعامل المشاغب بيكر والشيخ باومرت والعديد من النساجين والنساجات .. تجري احداث هذه المسرحية في كاشباخ بجبال الاويلن .. وفي مصنع الاقمشة القطنية ..يتقدم بيكـر الى طاولة المحاسبة التي يقف خلفها الناظر بفايفر ، حسب دوره وينقده الاخير بأجره ، فيتسلمه كأنه يتسلم حية رقطاء ويـدور علـى نفسـه ويخطب الجميع قائلا : « انها لصدقة اللؤماء لا اقل ولا اكثر فالمـرء يظل يطأ بقدميه اخشاب النول .. ثمانية عشر يوما وكأنه اعتصر اعتصارا يكاد رأسه يبور من الغبار والحرارة اللاهبة فانه يسعد بالحصول على ثلاثة عشر غروشنا ونصف » ما هذا اللغو الفارغ ؟ كيف يسمح بيكـر لنفسه ان ينساق مع الشيطان ، انه اذن والشيطان من معدن واحد . ويحدث ان يمر درايسفر بالغرفة ، فيومىء بفايفر الى بيكر ، كأنـه يذكره به فيتذكر رب المعمل ويقول « أهذا هو ؟ » وهنا يلتفت بيكر اليه ويقول ، « اجل ، اجل ، » ويشير الى نفسه « هذا هو » ويشير الـى درايسفر ويقول « وهذا انت » بيكر يعرف نفسه معرفة جيدة ، ويعرفه رب العمل كذلك فالمسافة بينهما محددة متسمة ويكفي لتثبيتها اسمـاء الاشارة والضمائر ..

ويتوعد درايسفر العمال ويهددهم ، اذ كيف يجسرون ان يمـروا امام داره العامرة ، وهم « شرذمة من السكارى او عصابة من الاشقياء السفهاء مساء امس وهم ينشدون تلك الاغنية السافلة » ... غير ان احدا من هؤلاء العمال لا يستطيع ان يرد عليه بكلمة غير بيكر ، فتحدث بين الاثنين مشاجرة يثور على اثرها درايسفر ، ويستنجد بالشرطة من طرف خفي ، او هو يكاد يتظاهر بذلك ، ولكن بيكر لا يتزحزح من مكانه ويظل يناوشه الكلمة الثقيلة بعد الاخرى .. ويخرج درايسفر مـن الغرفة ذليلا ليرى منظرا بشعا اخرا ، ان غلاما يقع مغشيا عليه فـي باحة المعمل ، والكل يهرعون اليه ، هذا يناوله شيئا منعشا وذاك يحرك وجهه ، وهنا ينتصب بيكر ليقول : « اعطوه شيئا ليأكله ، وحينئـذ يعود الى رشده . » هكذا وبهذه البساطة يجابه بيكر اكبر معضلـة فيحلها حلا معقولا عمليا ، في اللحظة والتو . ذلك انه رجل عملي يعرف دقائق الحياة ، فيفصلها على كل انسان على حسب مرتبته في الهرم السحري المعروف . لكن من المسؤول عن حالة الغلام هذه ؟ طبعـا ان درايسفر ليس مسؤولا مطلقا . على الرغم من قوله : « .. على مـن يقع اللوم اخر الامر ؟ من الطبيعي ان يقع علينا نحن اصحاب المصانـع قطعا فنحن المذنبون في كل امر » لانه لم يدفع بالغلام الى العمل دفعا ، طالما هناك خيار وحرية .. وانما الذي دفع الغلام الى المجاعة هي اسرته الكبيرة ، والمسؤول الاول فيها ابواه طبعا . وكيف يكون درايسفـر مسؤولا عن هذه التوافه من الامور وهو « يخوض مغامرة كبيرة لا تخطر على بال العامل ولو في المنام ، وهو لا يعرف في بعض الاحيان ما يأتي وما يدع » من كثرة عمليات الحساب والاحصاء ، كما عليه ان « يفكـر ويقدر مئات المرات بلا توقف وان يخوض معارك ومنافسات يتوقف عليها الموت او الحياة » ايمكن ان يكون مثل هذا الرجل انسانا بلا قلب ، يعضه هذا الكلب او ذاك من كلاب الصحافة .. ان هؤلاء يتهمونه بالبذخ في العيش والتنعم في اللذائذ في حين لا يكاد النساجون المساكيـن يستطيعون ان يسدوا رمقهم بما يقدمه لهم من اجور تافهة حقيرة ! هذه تهم كاذبة وزور وبهتان ، درايسفر رجل لا يمكن ان يكون قاسيا ، ولا يمكن ان يقذف بالنساجين لاتفه الاسباب خارج ابواب المعمل ، لا ، لا ، لا يمكن ذلك ، فما زالت دماء الانسانية تجري في عروق درايسفر ، ومصداق ذلك « انهم (اي العمال) يريدون ان يتحدثوا عـن الجوع وعندهم من فائض المال ما يستطيعون به ان يعبوا الخمر من الاقـداح الكبيرة عبا .. »

ارأيت كيف تكون وجاهة الاسباب ؟ أرأيت المنطق لاول مرة فـي العهد المبارك الجديد يمشي على قدميه بخفة ورشاقة وثقة ؟ ومن ثـم فمن حق درايسفر ان ينصح امثال هؤلاء الاوغاد من اتباع بيكر بالابتعاد عنه ، وان ينصح لبقية العمال ان يكبحوا جماح هؤلاء الاشرار .. لان الامور اذا ما تجاوزت حدها انقلبت ضدها ، واذا بدرايسفر الحريص على مصلحة العمل والعمال ، مضطر اضطرارا الى ان يصفي حساباته ويترك العمل .. وعندئذ تحل الطامة الكبرى ، فكيف يكون مصير العمال وقد تعرضت بضاعتهم الحية ، قوة عملهم الى كساد ، انهم سيندمون على ما فعلوا ولات ساعة مندم اما اذا كان الاجر قليلا الان ونصيـب العمال من خيرات الدنيا يسيرا ، فلا بأس ، اليس مـن الاحسن ان يحصل الانسان على كسرة خبز من ان يموت جوعا . غير ان كسرة الخبز هذه ، على ضآلتها تندر مع الايام ، فلا تكاد تصل الى الافواه الا لماما حتى يطبق اليأس اطباقا على النفوس ، فاذا باحدى اليائسات ، مـن العاملات تقول : « خير الامور بالقياس الى كل واحدة منا ان يرأف بنا ربنا ويأخذنا من هذا العالم » . فتجيبها صاحبتها : « انا لا اجـد لنفسي مخرجا على الاطلاق ، فنحن نعمل ما وسعنا العمل ، ونظل نسعى الى ان نسقط على الارض » واذن فان الحياة عسيرة جدا تنضح الامـا ومصائب ومآسي . ويلخص الشيخ انزورجه هذه الحياة بقوله الفصل : « نحن هنا لا نستطيع ان نعيش ولا ان نموت .. وكل منا يقاوم حتـى الرمق الاخير، غير انه لا بد له ان يستسلم اخر الامـر . » ويقارن الشيخ بين هذا العهد وعهد شبابه فيقول : « انهم (يعني اربـاب العمل) يسرقون منا ما تبقى لنا من لقيمات الخبز ويقترون علينـا ويختلسون قوتنا ما وجدوا الى ذلك سبيلا » بينما « كـان اصحاب المصانع في تلك الايام يدعون النساجين يعيشون ايضا . »

ويعود محرض اخر من الجيش يدعى ييفر ليكمل المسبحة حبة واذا به يقول والحضور كلهم اذان صاغية : « لو اننا استطعنا ان نتدبر امورنا ونوحد صفوفنا لانزلنا بأصحاب المصانع كارثـة كبيـرة » لان « شياطين الجحيم ، الذين يفترشون قوت المساكين ستكـون اللعنـة جزاءهم . »

وتتفاقم النقمة شيئا فشيئا ، وتشتد نذر الاعصار الكبير ،وتهتز عروش ارباب العمل ، وبخاصة عرش درايسفر الصغيـر ، ويثـور اللصوص الصغار على اللصوص الكبار ، وتقوم القيامة ، واذا بالجلود المسلوخة تنبعث حية ، والحشود الادمية تنطلق كالسيل الجارف تجرف في طريقها كل اسس الكيان الاقتصادي الجديد .. الانهيار مستمـر وبسرعة فظيعة ، المقاومة قليلة غير ذات جدوى .. المدافعون عن الكيان قليلون ، فضلا عن جبنهم وخبثهم ، ولكنهم يفطنون في اللحظة المؤاتية، الى سدنة النظام من الانكشارية ، فيستغيثون بهم طلبا للنجاة ... فينجدونهم على اكوام الجثث المتخلفة على هذا الرصيف وذاك هنـا وهناك ، في ظل هذا النظام المترنح الـذي وجـد طريقه الـى متحف التاريخ !

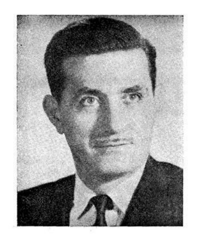
بغداد يوسف عبد المسيح ثروة

(1) شواهد مسرحية (النساجون) ترجمة محمد جديد .

سؤل ؟

يا لغة الاجراس
أتولد الاشياء والدهشه
ويولد الاحساس
كالصوت والرعشه

دمشق صالح درويش



محمود الحسنية

التفاعل بين البيئة الجغرافية والانسان

بقلم محمود الحسنية

* * *

ميز الاغريق بين الظاهرات الطبيعية والبشرية المختلفة ، فنسقوا المعلومات ، ووضعوا لها الابواب ، وكان لهم الفضل في وضع اسس علم الجغرافيا ، شأنهم في بقية اكثر العلوم المزدهرة ، وقسموا علم الجغرافيا الى قسمين رئيسيين : قسم مبحثه مركز الكرة الارضية من المجموعة الشمسية ، ودرس ابعاد خطوط الطول والعرض ، وقسم مبحثه وصف البلدان والاقاليم ، وكلمة Géographia تتكون من مقطعين : Graphia وصف ، و Géo الارض.

ولم يفت علماء الاغريق ان يمروا باحوال البلاد الاجتماعية فيلاحظوا تأثيرات المناخ واجواء البيئة الجغرافية على سكان الاقاليم ، مما حمل هيبوقراط (٤٦٠ – ٣٧٧ ق‌م) بكتابه « الجو والماء والاقاليم » على ان يدون الفوارق التي لاحظها بين سكان المناطق الجبلية الذين كانوا يتصفون بطول القامة وبالشجاعة وبين سكان المناطق السهلة الذين كانوا يتصفون بنحافة القامة وبحب السيادة .

وقد دل ارسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق‌م) في كتابه « السياسة » على الارتباط القائم بين المناخ وبين طبائع الشعوب : وشرح سترابون (٥٨ – ٢١ ق‌م) اثر تضاريس الارض ، والمناخ ، والعلاقات المكانية في ايطاليا ، التي اسهمت في ابراز عظمة روما ، واخص سترابون طبيعة البلاد العربية بدراسات جغرافية وافية .

وركز عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) في مقدمته الشهيرة والتي تعتبر اول بحث منظم في علم الاجتماع ، على اثر المناخ في طبائع الشعوب ، وتأثير الهواء والشمس في الوان البشر واخلاقهم وافضى به هذا البحث الى ان يدون التاريخ بانه خبر الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس ، والعصبيات ، واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال .

وعن مقدمة ابن خلدون اخذ الغرب اصول علم الاجتماع فكتب شارل مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) في مؤلفه « روح القوانين » بان الانسان كائن فرد او وحدة طبيعية تقابله قوتان كبيرتان يتأثر بهما : الارض باقاليمها ، والمناخ بتقلباته . ثم ازداد اهتمام علماء الاجتماع والاقتصاد والمفكرين بدراسة المجتمعات البشرية وبمشاكلها ، واشاروا الى ان الناس لا يعيشون في فراغ ، بل في بيئات متفاوتة التكوين والتفاعل ، تتلاءم صفاتهم مع ظروفها ، وان البقاء للاصلح ملاءمة معها ، وهذا ما اوضحه روبير شارل داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) في كتابيه : اصل الانواع ١٨٥٩ ، وتطور الانسان ١٨٧٩ ، من ان العلاقة بين الكائن الحي والبيئة ، علاقة ملاءمة وتكيف ، فعلى الكائنات الحية ان تتلاءم مع هذه البيئة ، وتتكيف مع حاجاتها ، وان هذه الملاءمة عملية مادية حتمية ، وللبيئة في نظرية داوين ، قوة عارمة .

وعلى هذه النظرية ركز هربرت سبسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣) قواعد الاخلاق ، وبنى ارنست هايكل (١٨٣٤ – ١٩١٩) اسس علم الاجتماع ووضع هيبوليت تين (١٨٢٨ – ١٨٩٣) مقاييس القيم مشددا على ان « الجنسية » والبيئة والزمان » هي العوامل الثلاثة التي تفسر الحوادث واليها نرجع في درس تطورات التاريخ ، ولم يشذ عن هذه النظرية اي من كارل ريتر (١٧٧٩ – ١٨٥٩) وفريدريك راتزل (١٨٤٤ – ١٩٠٤) منظمي الاصول الحديثة للتفكير الجغرافي . اما تأثير الانسان على البيئة ، فلا يقل شأنا عن تأثيرها عليه . فسواحل اوروبا الطويلة المتعرجة وامزجة بيئتها البحرية تعكس على السكان نمو ثقافات صالحة تنطبع بها ، واجواء البحر الابيض المتوسط الخصبة ساهمت في ظهور قوة الاساطيل البحرية ، وازدهار حضارة كل من فينيقيا وقرطاجة واثينا .

وهكذا فالسماء الصحوة الصافية استرعت انتباه العرب وجذبتهم الى دراسة النجوم والكواكب ، وقادهم هذا الدرس الى النبوغ في علم الفلك ، حيث اشتهر فيه

كل من فضل بن سهل النوبختي المتوفـي عام ٨١٥ م ، واحمد بن كثير الفرغاني في عصر المأمون ، وعبد الرحمن بن عمر بن سهل الصوفي ٢٩١ – ٣٧٦ هـ ، وابو الوفـاء محمد بن يحي بن اسماعيل بن العباس البوزجاني ٣٢٧ – ٣٧٦ هـ ، وابو الحسن علي بن عبد الرحمن بن احمد بـن يونس وقد رصد كسوف القمر وخسوف الشمس مـن المرصدالذي بناه لهخصيصا العزيزالفاطمي فيجبل المقطم، المتوفي بمصر في الثالثمن شهـر شوال سنة ٣٩٩ هـ ، (٣١ – ٥ – ١٠٠٩) ومسلمة المجريطي اقليدس الاندلس المتوفي سنة ١٠٠٧ ، مؤلف « تعديل الكواكب » و« اثار البلاد » ومترجم كتب بطليموس « المجسطي » والنظريـة البطليموسية في هيئة الافلاك وقد ترجمت تآليفه الـى اللاتينية في سنة ١٥٣٦ م بمدينة بازل بسويسرا ، ثـم ابو الريحان البيروني (٩٧٣ – ١٠٥٠ م ؟) مؤلف « الاثار الباقية في القرون الخالية » وقد طبع لاول مرة فـي لابزيغ ١٨٣٨ م وابو الحسن القفطي ١١٦٧ – ١٢٤٨ م ، وزكريا بن محمد القزويني ١٢٠٣ – ١٢٨٣ م ، الملقب « بلينوس العرب » ، ومنمؤلفاته « عجائب المخلوقـات وغرائب الموجودات » .

وهذا العلم عرف العرب الفلك بانه مدار النجـوم التي يضمها ، كما جاء في قوله تعالى « وكل في فلـك يسبحون » وسمي فلكا لاستدارته ، ولكل كوكب مـن الكواكب السيارة التابعة فلك يسبح فيه ، رتب حسب منزلته : فالقمر في الفلك الاول ، وعطارد معناه النافذ في الامور ، في الفلك الثاني ، والزهرة مأخوذ من الزاهـر الابيض ، في الفلك الثالث ، والشمس سميت كذلك لشبهها بالشمسه ، تتوسط الكواكب السبعة ، في الفلك الرابع ، والمريخ مأخوذ من المرخ ، شجر تحتـك اشجاره اغصانه فتوري النار فسمي بذلك ، لشبهه بالنار فياحمراره في الفلك السادس ، وزحل مأخوذ من زحل اذا ابطأ سمي بذلك لبطئه في سيره ، في الفلك السابع .

ولم ينس العر ببان يلاحظوا تأثير الارض والفلـك على الاشياء ويربطوا تاريخ الانسان والعمران بالاحـوال الاقليمية ، وعللها واسبابها وقـد شرحه اعلامتهم ابـن خلدون ، بما اوتي من بصيرة حاذقة وعلم غزير ، فضبط فيها كل شارد ووارد ، واستنتج بان سكان البادية تأقلموا ببيئة خشنة المظهـر العام ، كمـا ان المدينة والاقاليم المتحضرة خلعت على سكانها من طبيعة بيئتها وتربتها أثر النشاط الاجتماعي .

وهذا ما حدا بفريدريك راتزل ان يدرس طبيعـة الانسانعلى ضوءعلاقته بالبيئة الجغافية ، حيث توصل الى علم جديد يعرف بالجغرافية البشرية Anthropogéographie اي تـوزيـع السكـان وتجمعهـم علـى سطـح الارض توزيعا جغرافيا ، وعنه تفرع علم الجغرافيـا السياسية الذي يقوم على وحدة اماني الشعوب ومـراعاة امزجتها وامكاناتها . وعلم الجغرافية الاقتصادية الـذي يعد الانسان ليساهم في توفير سبل العيش الكريـم لمجموعة سكان الاقاليم باستثمار مواردها الطبيعيـة . كيف لا والانسان هو ابن سطح الارض تطعمه وتربيـه وتوجه انظاره وتعده لمجابهة الصعاب وتذليل العقبات .

وقالت تلميذة راتزل مس الن سمبل : « اننا لـن نستطيع ان ندرس الانسان دراسة علمية ، وهو منفصل عن الارض التي يفلحها ، او الارض التي يـدب عليها او البحر الذي تمخر سفنه عبابه ، كما اننا لن نستطيع ان ندرس الحيوان القطبي منفصلا عن البيئة القطبيـة ، او ابن البادية بعيدا عن الصحراء وجدبها » .

وهكذا تولد البيئة الجغرافية العوامل الطبيعيـة الرئيسية للتاريخ ، وهذه العوامل من حيث تأثيرها علـى الانسان هي :

اولا – عوامل ذات تأثير مباشر مثل المناخ وأثـره على لون الجلـد والصفات الجسمية وملاءمـة الانسان لظروفه .

ثانيا – عوامل ذات تأثير غير مباشر مثل الموقـع الجغرافي ، والقرب والبعد من مراكز الحضارة وما يؤديان في النهاية الى تقدم او تأخر الانسان .

ثالثا – عوامل تؤثر فيالنمو الاقتصادي والاجتماعي اما ان تزيد من نموه ، فيتطور ويتقدم واما ان تعيقـه فينكفيء ويتقهقر .

ومن المعلوم الواضح ان عناصر البيئة كثيرة ، منوعة، فعلى المرء ان يختار منها ما يتلاءم مع قابلية شخصيتـه فيكيفها حسب طاقته المادية ومقدرتـه العقليـة اذ ان العقبات الطبيعية لم تمنع الانسان من التفكير في التغلب عليها . فاستصلاح الاراضي وضبط مجاري الانهار وشق الانفاق واقامة الجسور والسدود والمنشآت الزراعيـة والصناعية واستثمار خيرات الارض الظاهـرة منهـا والدفينة الى عملية غزو الفضاء دليل الانسان على تخطي العقبات وتكييف الاجواء القاسية التي تحول دون التقدم نحو العمران والرفاهية وتنفيذ الرغبات .

وبما ان الجغرافيين يدرسون الارض من حيث كونها وطن الانسان ، فهم في جميع دراساتهم الطبيعية لايهملون الجانب الانساني ابدا ، كما انهم لا يهملون الجانب الطبيعي لدى دراسة جميع فروع الجغرافيا البشرية .

وهذا ما نلاحظه الان في عملية اطلاق الصواريـخ والاجرام التي تحاول غزو فضاء الفلك فالانسان هو محـور كل دراسة وبحث ، وسواء نجحت محاولة الفزو وتحققت اهدافها ، ام لم تنجح وتذهب مع شعر ابي العلاء (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ ، ٩٧٣ – ١٠٥٨) وتساؤله حين قال :

يا ليت شعري وهل ليت بنافعة … ماذا وراءك او ما انت يا فلـك ؟
كم خاض في اثرك الاقوام واختلفوا … قدمـا فمـا اوضحوا حقا ولا تركوا

في معبد الذكرى

★ ★ ★

ليت الزمان يعيد لـي احلامي ... ويرد عهـد صبابتي وغرامـي
ويمد في أجلي ولو امدا بـه ... القى الحبيب قبيل يوم حمامي
اني مضيت ارى خيالا واقفـا ... قربي واشباح الديـار أمامي
لم يبق مني الدهر بعد فراقه ... الا عيونـا بالدمـوع طوامـي
يـا حرها من أدمع سالت على ... جفنـي القريح تبثها آلامـي
لو لم تشط بي النوى عنه لما ... أفرغت دنـي او عققت قدامي
وصبوت للوكر القديم يرد لـي ... عهد الهـوى بمسارح الآرام
أيام كان الحب يجمعنا علـى ... صدر الربـى ومناكب الآكـام
اني احن الى الربيع وقد كسا ... تلك الربـى بجمالـه المتسامي
والطير تبعث من شجي حنينها ... لحنا يردده الغدير الطامـي
والشمس تحتضن الجبال ظمئة ... لندى الصباح وزهـره البسام
والحور نشوان المعاطف ينثني ... جـذلا امام ترنـح الانسام
انا ما عتبت على الزمان تذمرا ... من موطن قد ضاق فيه مقامي
انا ما غضبت على الوجود تظلما ... من مهجر قد ساء فيـه ختامي
كلا ولا اسفا علـى أدب ذوى ... أودعته نفثات قلبـي الدامـي
أوليته محض النـدى بقصائد ... دبجتها بمدامعـي وهيامـي
فرجعت عن حلمي الوجيع وقد بكت ... نفسي ظلامة حملـة الاقـلام
انا ان أسفت فانما اسفي على ... زمن نعيش بـه بغيـر سلام

وطني اجلك ان تنام على الاذى ... رهن الشقاء مقيـدا بزمـام
قل للاولى أدوا السلام وخلفوا ... حرم العدالة موطـىء الاقدام
مهلا غزاة القدس نخبركم غدا ... ما يفعل الصمصام بالصمصام
برزت من الغاب الاسود يقودها ... عزم الشباب الى النجيع ظوامي
تمشي الى الثأر العميم كانها ... تمشي الى الوطر العزيز السامي
تهب النفوس رخيصة وقد دعا ... داعي العلى والمجـد للاقدام

خوخوي ـ الارجنتين ... فائق جبور

شمس تغيب ويقفو اثرهـا قمـر ... ونور صبح يوافي بعده حلـك
طحنت طحـن الرحى من قبلنا امما ... شتى ولم يدر خلق ايـة سلكـوا
وقال انك طبع خامس نفـر ... عمرى لقـد زعمـوا بطلا وقد افكوا
رامـوا سرائر للرحمن حجبهـا ... ما نالهـن نبـي لا ولا ملـك

والجغرافيا هي العلم الذي يوحد بين الظاهـرات المختلفة من طبيعية وانسانية ، وهي الجسر الطبيعي بيـن العلوم الطبيعية والاجتماعية ، تحلل الظاهرات وتعيدهـا الى اصولها في بيئتها بحثا عـن كل نشاط اجتماعـي يستهدف خير العالم .

ومع سعي علماء الطبيعة واهتمامهم المتزايد بالرفاهية الانسانية ، يقابله اهتمام من اجل تحقيق تلك الرفاهيـة يقوم على كيفية استغلال الجماعات البشرية لموارد كـل بيئة جغرافية .

ومن مرحلة الحياة البدائية ، الى مرحلة توزيـع السكان على سطح الارض وكثافتهم وهجراتهم ، الى مرحلة التطور وظهور المجتمعات المعقدة الحديثة ، الى دراسـة العمران البشري وضبطه وتطوره في المدن والارياف وفق مقاييس خبراء علم الاحصاء ، يحمل الانسان مع كل مرحلة اثار بيئته الجغرافيـة ، كما تحمل هـي بعض اثاره الانسانية .

محمود الحسنيه

استلقت الصبية الجميلة على فراشها الوثير بتراخ ورمقت النافذة المطلة على الحقل بنظرة متفائلة يكتنفها سؤال كبير ، وما لبثت ان لمحت غيمة كثيفة تختلط بزرقة السماء ، وتبشر بهطول المطر ، فابتسمت بدلع .. وتقلبت على جنبها ، ولكنها ما عتمت ان نهضت الى النافذة ، وامعنت في السماء جيداً ، فتأكد لها ان المطر لا شك هاطل ، والزرع في الحقل سيرتوي بعد ظمأ طويل . وسنابل القمح الذهبية ستنمو بطول شاهق .. والتباشير كلها تؤكد ان الموسم الزراعي سيكون خصبا ، وان محصوله سيغطي الخسارة الكبيرة التي اصابت الزراعة في الاعوام الثلاثة الماضية التي بخل فيها المطر على الزرع ولم يهطل الا قليلا ..

وهزت الصبية رأسها ، وزفرت بضيق ، ثم حدقت في ارض الحجرة بامعان طويل ، والابتسامة الصغيرة عالقة بوجهها . وصمتت وهي تحدث نفسها بشيء دفين كثيرا ما ضاقت بكتمانه « .. غدا .. غدا سيتحقق املي .. وسأتزوج (البك) الذي كان يؤجل زواجنا الى ان ينتعش بثمرة المحصول » .

واتسعت الابتسامة على ثغرها .. وملأت كلّ وجهها ، وغدت مشرقة ، كأن السماء قد استجابت لدعواتها الطيبات التي كانت ترددها في مطلع كل فجر ..

البك .. ألم يهمس في اذنيها في امسية مشحونة بالعاطفة المشبوبة التي كان يحملها اليها ما بين جوانحه كلما جاءها الى الحقل في القرية الصغيرة التي تبعد عن المدينة مسافة ربع ساعة ، كان يقطعها بسارته الزرقاء الفاخرة ..

ـ سأتزوجك يا « سعدة » في نهاية الموسم ، عندما نبيع المحصول ونلعب بالليرات الكثيرة كتراب الحقل ..

وضحكت يومذاك سعدة باطمئنان له ، وهو يداعبها بخبث شرير ، ويلقي بظهرها الى صدره ، ويده تجوس بجراة فاضحة في خصلات شعرها التي تستره عصبة محلاة بقروش فضية .. وبعض ارباع من الليرات الذهبية .. وحبات من الخرز الازرق .

والبك الذي تنتظره الصبية الحلوة ابنة الناطور العجوز في الحقل الكبير هو « لطفي » صاحب مكتب « الفجر » لتسهيل المعاملات العقارية والقضائية ، والاستاذ (كما يحلو له ان يسمي نفسه) رجل في الخامسة والاربعين .. قسماته الجامدة لا تدل على صفاء .. عيناه الهزيلتان تنمان على مكر متأصل في نظراته .. وثغره متسع يكشف عن ـ تكشيرة ـ في



بقلم منور فوال

شفته السفلى . وانفه المدبب يشوه ملامحه ، مما أضاف الى نفسه عقدا شاذة ابعدت اكثر الناس عنه .... اذ ان الوسائل التي كان يسلكها في سبيل الوصول الى المادة غير مستقيمة . فهو لا يتردد ابدا ان يطرح نفسه بالذات في اسواق المساومة لقاء قروش زهيدة صدئة تزيد في ثروته . واذا اراد الانسان ان يعرف ماضي لطفي وجده متشعبا في مفارق كثيرة .. لقد عمل في مستهل حياته بحرف متنوعة استطاع



من ورائها ان يجمع ثروة طيبة استغلها في تجارة الورق .. والجلود والسمن .. الخ ..

وهكذا .. تخطى الصعاب الى ان استقر في مكتب « الفجر » وغدا (استاذا) . ولكم كان يغضب اذا لم يسبق اسمه كلمة (يا استاذ) ، اذ يعتبر هذا اهانة غير مغتفرة .. لم ؟ ولماذا .. ؟ أوليس هو مدير مكتب ويستطيع أن يدخل وزارة العدل ويلاحق معاملات القضاء من غرفة الى غرفة .. ومن محكمة الى محكمة .. ؟ لهذا كله كان يشتاط غضبا اذا استبدلت كلمة الاستاذ بكلمة السيد .

الايام توازدت .. واخفت ماضي لطفي الذي لا يشرف ببريق الذهب ، ورصيده الذي يغفو في صناديق البنوك .. والسيارة الزرقاء الفاخرة التي كانت تضمه في جوفها كلما اراد التنزه في الشوارع طولا وعرضا والى جانبه حسناء في عمر الزهور او امراة تكون قد كلفته بمعاملة نفقة على زوجها المهاجر او عجوز ثرية يخدعها بمعسول الكلام كي يبتز مالها باسم الرسوم القضائية او رشوة موظف كسول .. الخ ..

الايام .. الايام كانت الى جانب لطفي في كل ما يعمل . وازداد تباهيا على اترابه .. وكان يساعده في مكتبه شاب خذلته الحياة في النجاح .. فوجد عند لطفي كل نجاح .. اذ كان يمهد له سبيل الاتصال بالنساء اللواتي لهن قضايا في المحاكم والسجل العقاري ... فقد كان يقضي معظم يومه في ردهة القصر العدلي وعيناه تبحثان عن أمراة لا تدل ملامحها على معرفة بشؤون القضاء .. فكان يتقدم منها بعد ان يصلح من هندامه ، ويصفف شعيرات رأسه ، ويقول لها :

ـ يلزم خدمة يا ست ؟ ..

وتبهر نظرات الست بالشاب الانيق .. ويفتر ثغرها قليلا ثم

تطلب اليه مساعدتها او ارشادها الى مكان تروم قصده .. وبعد اخذ ورد طويل يذهب بها الى لطفي حيث يتم الاتفاق معها على ملاحقة القضية نظير اجر محترم ، اذا كانت الست لا ترضيه كرجل .. وان كانت جميلة فالجمال يشفع لها ، ويتفق معهاعلى مبلغ رمزي بعد ان يرسم خطة في افكاره لاصطيادها ..

وكم ... وكم من النساء كن ضحيته . ثم لم يكن ليتورع ابدا عن ان يقدم المخدوعات المعوزات الى معارفه بعد ان يملأ رؤوسهن بأوهام الزواج من صحبه .

لم تكن عين رقيب ترقبه .. اذ كان على صلة بشخصيات بارزة تؤازره في المحن لقاء سهرة ممتعة في مكتبه . لا سيما وانه كان يستخدم فتاة – كسكرتيرة – يشترط فيها دائما الجمال قبل الثقافة .. والدلع قبل الاتزان .. والميوعة قبل الاخلاق ، فهو لا يحب الموظفة ان تخفض نظرها الى الارض حياء. فانطبيعة عمله –فياعتقاده– تتطلب طراوة الفتاة وغنجها . فان سارت امام الزبائن يجب ان تتثنى كالراقصات فوق زجاج الموائد ... والا يكف ثغرها عن اطلاق الابتسامات المثيرة لهذا وذاك .

هذا ما كان يذكره على مسامع كل فتاة تخضعها الحياة لعمل الذلمقابل لقمة عيش مريرة .

وبالفعل كان يتوافد على مكتبه شخصيات كبيرة يهمها ان تمضي الفراغ برؤية الوجوه الجميلة ... والاجساد الملتوية.. وتشنف اذانها بأصداء الضحكات الناعمة التي ترسلها الموظفة لهؤلاء ..

لم تكن الحياة في عرف لطفي اكثر من ساعات عابثة يقطعها لهوا في كأس سوداء .. وامرأة ضحية . ثم يوردها كالبضاعة الى اصدقائه الافاضل او على حد تعبيره الاساتذة وهؤلاء الاساتذة هم رجال عابثون يقتلون الحياة بجسد امرأة اعوزها القدر للعيش .. او هم اخذوا بيدها الى السبل الملتوية .. ثم يمجونها بقطع بصاق حقير ، بعد ان يثقلوا يدها المرتجفة بخمس ليرات مهترئة مسمومة ، ويشيعونها بنظرات ساخرة .

وعلى هذا الشكل المريب قطع لطفي فترات حياته . وظفر بثروة طائلة اخفتشوائن سلوكه . واظهرته للاغبياء بمظهر البك الوقور الذي يحسب له الحساب في القرية الصغيرة التي اشترى فيها حقله الكبير الذي يشرف على حراسته الناطور العجوز ، وابنته سعدة .

سعدة الصبية الحلوة التي كانت تنتظر البك بلهفة كل مساء ، حيث يعود اليها ويقضي معها وقتا طيبا ، الى ان كسر فيها غصن الحياة وتركها والموت يتوعدها ، ويطوف بأشباحه الرهيبة حول جسدها الجميل يحاول ان ينبش بأظافره الطويلة الناشبة ربيع حياتها ..

ولكم بكت سعدة فوق قدمي البك الوقور تستجديه الحياة بألفاظ فيها الضراعة واللوعة .. وفيها مرارة العمر كله ..

– الرحمة يا سيدي البك، الرحمة يا سيدي البك .. ثم تمسح دموعها ولطفي ينظر اليها باشمئزاز كبير .. وبضحكة يكتنفها دهاء حافل بالفضائح . وكانت كلما بكت بين يديه ضارعة مستجدية يشيح بعينيهعنها. ويطيب تضرعها بالوعد المزعوم :

– سأتزوجك يا سعدة عندما نبيع المحصول ..

وتنزل تلك العبارات في اذني الصبية كنغم جميل ، تسبح في غمرة اجوائه حالمة ثم تقدم للبك خدمة المساء المعهودة .

وولت سنة .. وتلتها اخرى .. واخرى .. والصبية الحالمة تعيش على اصداء النغم الجميل ، وتمنح البك عصارة شبابها ، ورونق مفاتنها وهي تبذل العطاء ببراءة مطلقةتدعمها الاحلام الهانئة التي ستغدو بعدها زوجة البك الثري الكبير ، ذي الثياب الانيقة التي تختفي وراءها براثن الشر ..

امهل القدر لطفي على طغيانه ، وامهله كثيرا ، الى ان كان يوم اراد فيه – كالعادة – ان يذهب الىحقله مع خيوط فجر جديد .. فالصبية تنتظره وفي قلبها وله فاضح ، وفي عينيها ايات حب مقيم ، تغذيهاصداء اللحن الرائع . فاستقل سيارته الزرقاء ، وسار في الطريق العريض ، وثغره يردد اغنية غير مفهومة ، وفجأة اختل مقودالسيارة واصطدمت بعامودكهربائي ، اخترقته الى سور حجري مرتفع ، فتهشمت واجهتها ، وكسر زجاجها واستقرت في مكانها حطاما اسود . وما هي الا دقائق حتى كان رجال الاسعاف والنجدة يقومون بواجبهم ، ويخططون الحادث الذي اودى بحياة لطفي الى ما نهاية ..

الصبية الحلوة ما زالت ترمق النافذة المطلة على الحقل بنظرة يكتنفها سؤال كبير .. والابتسامة تملأ وجهها كلما لمحت الغيمة الكثيفة تتلبد في السماء تنذر بهطول المطر . والابتسامة تتسع ، والغيوم تغطي زرقة السماء الصافية .

وولت ساعات والمطر لم يهطل .. والصبية تحملق فيالسماء كأنماتروم لو تصعد اليها وتمزق جمود الغيم لتسحب قطرات الغيث لتروي بها الارض بعد ظمأ طويل ، كي يكون المحصول وفيرا ، وتزف الى البك ، الذي يجيء اليها كل ليلة ويهمس في اذنيها معسول العبارات التي تعيش على اصدائها حالمة .. ولكن المطر خذلها .. وجمد في السماء . والبك لم يعد اليها ابدا ..

القاهرة　　**منور فوال**



ديوان حميد الهلالي

١٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافة بالقاهرة

من هو حميد الهلالي ؟ صاحب هذا الديوان الذي ينشر مشروحا لاول مرة هو الشاعر « حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر الهلالي » ، وقد كان يكني بكنى كثيرة ، فتارة يقولون : ابو الاخضر ، وتارة : ابو خالد ، وثالثة يقولون : ابو لاحق . والتكنية عند العرب معروفة مشهورة في الجاهلية والاسلام . فقد كان الشاعر الاعشى ـ مثلا ـ يكنى بأبي بصير ـ وهي كناية الضد ، لان الاعشى كان لا يبصر الا قليلا جدا ـ وكان النبي عليه السلام يكنى ابا القاسم ، كما كان عمر بن الخطاب يكنى : أبا حفص ، وكان علي بن ابي طالب ـ كرم الله وجه ـ يكنى أبا الحسن .

ولا تعجبن ايها القارىء الكريم اذا وجدت ان ابا شاعرنا حميد يسمى « ثورا » ! وقد تقول ان هذه التسمية اليوم غير مناسبة ولا ملائمة . وهذا حق ! ولكن العرب كانوا يسمون ابناءهم بأغرب الاسماء، سواء أكانت اسماء حيوان مثل اسد ، وكلب ، وكلاب ، او اسماء طير مثل غراب ، وصقر ، او اسماء جماد مثل صخر ، ومطر ، وحجر ، وبحر ، وحصن . وليس في هذا موضع لغرابة ، فان كثيرا جدا من الاسماء الاجنبية اليوم تحمل اسماء الحيوان والنبات والطير والجماد والزهر والسمك ، مثل : مستر (وود) بمعنى خشب ! ومستر (بريدج) بمعنى كوبرى او جسر ! ومستر (فلاور) بمعنى دقيق ، او زهرة ومستر (فيش) بمعنى سمك ..!

وشاعرنا حميد من المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وادركوا الاسلام ، بل لقد قضى في دين محمد عليه السلام اكبر شطر من حياته ، وهو في هذا غير الشاعر حسان بن ثابت الذي شطر حياته شطرين متساويين احدهما في الجاهلية والاخر في الاسلام ، وعاش في كل منهما ستين عاما ، وبهذا بلغت حياته عشرين ومائة عام .

ولا شك ان حميد بن ثور عاش في الاسلام ، فهي حقيقة مسلم بها وقضية مفروغ منها ... ولكن الشك حول العهد الذي بلغه في الاسلام ، فمن قول انه توفي في أيام عثمان بن عفان ـ وهو ارجح الاقوال ـ ومن قول انه ادرك العصر الاموي وامتد به العمر الى عهد عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني امية . ويستند القائلون بذلك الى بعض اخبار تروى له مع شعراء في زمان عبد الملك ، واذا صحت هذه الاخبار فان حميدا يكون من المعمرين ...

شاعر المعمرين !! وكبر السن ...! وتدلنا بعض اشعار حميد على انه كان حقيقة معمرا طال به العمر ، واضعفه الكبر ، واحنى ظهره الزمان .. ومن شعراء العرب من بلغوا من الكبر وطول العمر حدا سئموا معه الحياة وملوا معه البقاء وتمنوا على انفسهم الموت . فالشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن ابي سلمى ـ صاحب المعلقة الميمية المشهورة المملوءة بالحكم والامثال ـ يبلغ الثمانين عاما فيمل الحياة ، ويعبر عن ذلك الملل والسام قائلا في قصيدته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين عاما ـ لا ابا لك يسأم !

اما الشاعر الجاهلي الاخر : النابغة الذبياني ، فقد رأى في طول العيش ضررا على الانسان ، فأن كبر السن يفنى بشاشة الوجه ونضارة الجسم ، ويبقي مرارة الايام بعد حلاوتها ، ويرى المرء من السوء ما لم يكن له به عهد ، حتى لا يرى في الحياة شيئا يسره ، ويقول في هذا :

المرء يأمل ان يعيش
وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبـ
ـقى بعد حلو العيش مره
وتسوؤه الايام حتى لا يرى شيئا يسره !

وما ارق الشاعر الذي بلغ الثمانين ، فاحتاج الى ترجمان يصب له كلام الناس في الاذن لان سمعه أصبح ثقيلا . ويقول في هذا :

ان الثمانين ـ وبلغتها ـ قد احوجت سمعي الى ترجمان !

والانسان في حياته معرض للمرض بعد صحة ، وللتوعك بعد سلامة ـ فبينما يرى المرء قويا اذا به يضعف ويهرم ، وبينما يرى صحيحا معافى اذا به يعتل ويمرض ، وما بلغت الصحة حدها الا كانت دليلا على الافول نحو المرض ، ولهذا قال النبي عليه السلام : « لو لم يكن لابن آدم الا الصحة والسلامة ، لكفاه بهما داء قاتلا » . وقد اخذ الشاعر حميد الهلالي هذا المعنى فنظمه في بيتين يقول فيهما :

اري بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء ان تصح وتسلما
ولا يلبث العصران يوما وليلة اذا طلبا ان يدركا ما تيمما

التحسر على الشباب المدبر وبكاؤه ـ حين بلغ الكبر وعلو السن من الشاعر حميد الهلالي اخذ يندب شبابه المدبر ، ويتحسر على ما ضاع من ايامه ، وهي نغمة تجدها دائما عند المعمرين ، سواء أكانوا شعراء ام غير شعراء .. فالشعراء يعبرون عن تحسرهم بالشعر الذي تطاوعهم اداته ، وغير الشعراء يتحسرون بآهة ينفثونها ، او حسرة يصنعونها ، او كلمة يقولونها .. والمؤدي في الحالين واحد ، وهو التحسر على ايام الشباب ، حيث العمر ريق ، والزمان نضير ، والصحة مواتية ، والبصر صحيح ، ومتاع الحياة يجاب بايسر مجهود ...
وتروى للشاعر (حميد) ابيات خمسة في التحسر على الشباب يقول فيها :

ليس الشباب عليك الدهر مرتجعا حتى تعود كثيبا ام صبار
مالي قد اصبحت الا قد تنقضي بعض النواكث حبلا بعد امرار
من بعد ما كنت فيها ناشئا غمرا كانني خارج من بيت عطار
لقد ركبت العصا، حتىقد اوجعني مما ركبت العصا ظهري واظفارى
لا ابصر الشخص الا ان اقاربه معشوشيا بصري من بعد ابصار !

واذا شرحنا بعض الفاظ هذه المقطوعة الغريبة على بعض القراء ، وجدنا هنا صورة جميلة مؤثرة للشباب المدبر الذي لا يعود ابدا ، ولا يرجع الا اذا عادت الارض الحرة ذات الحجارة السوداء الى كثيب .. وهيهات ذلك ان يكون !! ويقول الشاعر في البيت الثاني ، لقد أصبحت لكبر سني وضعف حالي كالآل ـ او السراب ـ الذي يخدع رائيه ، فيحسبه شيئا وما هو بشيء ... وقد نقض الزمان ـ او حوادث الزمان ـ حبلي ، وعمل على تحلل ابرامه بعد ان كان حبلا شديد الفتل ـ وهذه الصورة كناية عن الضعف الذي عمل فيه الزمان على توهين قوة الشاعر . وفي البيت الثالث تذكر الشاعر المسن ايام شبابه حيث كان ناشئا حدثا ، وغرا لم يجرب الامور ، وكان يتمتع باللهو ، ويترف بالنعيم ويتطيب بالعطر ، كانه خارج من دكان العطار، كما يقال بلغة زمانه ، او خارج من عند « الكوافير » كما نقول نحن بلغة عصرنا ، ولسان زماننا !!

وفي البيت الرابع يصور لنا الشاعر المسكين كيف الجاه الزمان الى ان يتخذ « العصا » يركب عليها ، ويستند اليها ، ويستعين بها

على اقامة ظهره المقوس ، ومنكبه المنكس . ولقد طالت ملازمة الشاعر لركوب العصا ، وكثرة ملازمته لها ، حتى اوجعه ظهره ، وآلمته اصابعه واظافره من كثرة قبضه بيده عليها ...

وفي البيت الخامس يصور لنا حميد الهلالي ضعف بصره ، وعشى عينيه ، فلا يبصر الشخص الا عن قرب قريب ، ولا يتبين المرئيات الا عن كثب ، بعد ان كان يبصر بصرا طبيعيا قويا ...

موقف الشاعر « حميد » من الاسلام ـ لا تكاد المصادر والمراجع تسعفنا بما نطلبه من السيرة المفصلة والحياة الشاملة لحميد الهلالي في جاهليته واسلامه . لولا هذه الاخبار الادبية المبعثرة هنا وهناك والتي نستطيع ان نلم منها حياة الشاعر في سطور . ومن عجب ان الشاعر حميد الهلالي لم يجمع له شعر في ديوان قائم بذاته الا في هذه الطبعة المصدرة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٥١ . ولكن بعض أبيات شعره الدائرة يستشهد بها في كتب النحو واللغة والصرف والبلدان والامثال . ويظهر انه من الشعراء الهادئين الذين دخلوا الاسلام في صمت ، واعتنقوا الدين الجديد في هدوء ، فلم يقف من الدعوة الاسلامية موقف حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة مثلا في الدفاع عنها ونصرة نبيها عليه السلام . لقد كان « حسان » مثلا واقفا امام المشركين بالمرصاد ، يعيد هجماتهم على الدين الجديد ، ويكيل لهم الصاع صاعين ، والنبي عليه السلام يشد ازره ، ويؤكد له ان روح القدس يؤيده . ويجترىء حسان بن ثابت على قريش كلها ، وعلى الشرك كله ، فيقول مخاطبا « ابا سفيان » :

الا ابلغ أبا سفيان عني ... فانت مجوف ، نخب ، هواء
ان سيوفنا تركتك عبدا ... « وعبد الدار » سادتها الاباء

ويقول مخاطبا المشركين في سخرية قاتلة :

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه ، وينصره سواء
فان ابي ، ووالده ، وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

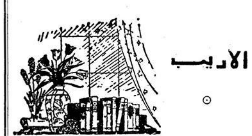
اما حميد الهلالي ، فلم يكن من شعراء الدعوة ولا المدافعين عنها ، بل اكتفى بالقبول لها ، والدخول فيها ، والاهتداء اليها ، شاكرا لله، ساجدا له ، مؤديا الزكاة ، ومقيما الصلوات ... وما أصدقه وهو يقول :

حتى أرانا ربنا محمدا ... يتلو من الله كتابا مرشدا
فلم نكذب ، وخررنا سجدا ... نعطي الزكاة ، ونقيم السجدا

غرور الحياة ... ـ لقد ادرك حميد الهلالي كما ادرك غيره من شعراء العرب تفاهة الحياة وغرورها ، وعدم دوامها على حال واحدة ، وقصر الايام مهما طالت ، وتقلب الحياة بالاحياء ، ما بين اعطاء وأخذ ، وزيادة ونقص ، واقبال وادبار ، وسعد ونحس . وقد يسبب هذا الادراك عند بعض الشعراء انتهاء الى فلسفة انتهاب اللذات ، وسرعة الاستمتاع ، واقتناص فرص اللهو ما دامت الحياة زائلة ، والدنيا باطلة ... كما نجده مثلا عند عمر الخيام ... وقد يسبب عند شعراء اخرين عزوفا عن اللهو ، وجنوحا الى الزهد او الاعتدال . فالشاعر عمر الخيام اسرف على نفسه في اللذات ما دام البقاء في الدنيا معدوما .. وكذلك فعل قبله الشاعر المخضرم « سحيم » اما شاعرنا « حميد » فقد مال به ادراك غرور الحياة الى الاعتدال جدا في طلب الحياة .. فما تكالب على مال ، ولا تهافت على لذة ، ولا اسرف في لهو . وما اصدقه وهو يقول في غرور الحياة ، وفي الاماني الكواذب التي تعلل النفس بها يوما بعد يوم ، وقد تعلل بها القدماء من امثال « عاد » « وتبع » فما بقوا ولا خلدوا ، وما نزال نتعلل بها اليوم ، كان عبر الماضين لم تنفعنا ، وحوادث السابقين لم تردعنا :

وكائن لقينا من نعيم ولذة ... واعجبنا المصطاف والمتربع
وقلنا لعل الماء يربو فنقتني ... وعل غلاما ناشئا يترعرع !
أماني عام بعد عام تعللت ... بأمثالها للناس عاد وتبع
ولكنما الدنيا غرور ولا ترى ... لها لذة الا تبيد ، وتنزع

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل٠ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle : 225139 : Tel

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

فلله مـا فوق السمـاء وتحتهـا   له المال يعطى مـن يشاء ويمنع

الحكمة عند الشاعر حميد ـ لا نستطيع ان نعد حميدا الهلالي شاعرا حكيما يقف على المستوى الذي يقف عنده الشاعر زهير بن ابي سلمى مثلا ، فالشاعر زهير قد امتلأ شعره بالحكم والامثال ، حتى لنجد له في معلقته الميمية ابياتا كثيرة في الحكمة وخاصة تلك التي تبدأ بقوله : (ومن) . كمثل قوله :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   علـى قوم يستغن عنه ويذمم

اما الشاعر حميد الهلالي فلم يقف شعره على الحكمة والمثل ، وان كان يروى له هنا وهناك بيت حكيم يصلح للتمثل به والاستشهاد. ومن ابياته في ذلك قوله :

قضى الله في بعض المكاره للفتى   برشد ، وفي بعض الهوى ما يحاذر

أليس هذا المعنى المعزي للنفس والمسلي لها عند نزول المكروه ، يذكرنا على الفور بقوله تعالى : « عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » ؟

ومن ابياته المشهورة السائرة سير الامثال قوله :

اذا لم يحدثك الفتى عن بلائـه   أتاك بما يبلى الفتى مـن يعاشره

وقد صدق شاعرنا ، فان هناك اناسا يستحون ان يتحدثوا عن انفسهم ، ويخجلون من ان يجعلوا من ذواتهم موضعا لحديث ... فهم لا يشيرون مطلقا الى عمل عملوه ، او الى فضل اتوه ، او الى بلاء حسن قاموا به في الحروب مثلا .. ومثـل هؤلاء الناس الحيين المتواضعين لا يختفي فضلهم ، ولا يضيع بلاؤهم ، فانهم اذا لم يتحدثوا عنه فسوف يأتي من عشرائهم من يحدث به ، لان الفضل لا يخفي ، حتى ولو اخفاه صاحبه ...

ومن ابيات حميد الجارية مجرى الامثال قوله :

وقد يركب الامر الذي ليس حاله   اذا ما اضاقته اليـه الضرائر

والضرائر : هي الضرورات ، وكثيرا ما تدفع المرء الى ركوب شيء ليس من طبعه ان يركبه . وهذا المثل يؤدي معنى قولنا الان « للضرورة أحكام » فلا بد للمرء ان ينزل على امرها حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ...

الهجاء الساخر .. !! ـ يظهر ان الهدوء كان غالبا على طبع الشاعر حميد الهلالي ، كما كان الاعتدال مزية في سلوكه في الحياة والمجتمع . فقد مدح مثلا ، وهجا ، وتغزل ، وتهكم ولكنه لم يكن مسرفا ولا مجاوزا الحد ! لقد كان يمشي في ذلك باعتدال . وقد كان من الممكن ـ مثلا ـ ان يسرف في الغزل والتشبيب كما فعل معاصره الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس ، الذي صدر ديوانه في « المكتبة العربية » ، وقد كان من الممكن ان يهجو مثلا ويطيل لسانه في اعراض الناس ـ كما فعل من بعده « الحطيئة » الذي لم يسلم من لسانه احد ، حتى ابوه ، وأمه ، بل حتى نفسه ... ولكن الاعتدال كان فضيلة الشاعر حميد . ولعل من اخبث هجائه ما قاله في رجلين ارسلهما الى محبوبة له يحملان رسالة منه اليها .. ولم يهج الرجلين بالطبع لانهما يؤديان له خدمة غزلية ، ولكنه انتهز هذه الفرصة فهجا قبيلة كان يعاديها ـ وهي قبيلة حيرم ـ واوصى الرجلين الرسولين ان ينتسبا ـ اذا ضبطا ـ الى قبيلة « حيرم » هذه لانها قبيلة ذليلة لا يخاف بأسها ، ولا تخشى الغارة منها ...

ولكن هجاءه اللاذع الساخر حقا هو ما قاله يهجو بـه الربيع العامري حينما كان واليا على اليمامة ، فقد ذكرت بعض كتب الادب والنوادر في أخبار الحمقى ان الربيع هذا بلغ من حمقه انه اخذ القود ـ الثار ـ من كلب لكلب اخر ، لان احد الكلبين عقر صاحبه ..! وقد شاعت هذه الحكاية وذاعت ، حتى تندر بها الناس على والي اليمامة، ووجدها الشاعر حميد فرصة طيبة للسخرية من هذا الوالي الاحمق، فقال يهجوه :

شهدت بأن اللـه حـق لقاؤه   وان الربيـع العامري رقيـع

اقاد لنـا كلبـا بكلب .. ولم يدع   دمـاء كـلاب المسلمين تضيـع

رثاء الخليفة الشهيد عثمان ... ـ قلنا ان الشاعر حميدا الهلالي كان من المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وادركوا الاسلام ، وقلنا ان بعض المراجع تقول ان عمره امتد الى أيام الخليفة الاموي الخامس عبد الملك بن مروان . وايا ما كان الامر فقد ادرك حميد عهد عثمان بن عفان ـ بدون شك ـ وادرك مقتله والقرآن بين يديه ، واحس خطر هذه الفتنة الداهمة على الاسلام والمسلمين ، فقال فيها شعرا رقيقا مؤثرا يصور به مصرع الخليفة الشهيد ، ويحمل على الذين سفكوا دمه الطاهر ظلما ومعصية . ونتركه هنا يقول في هذه المرثية :

اني ورب الهدايا فـي مشاعرها   وحيث يقضي نذور الناس والنسك

ورب كل منيب بـات مبتهـلا   يتلو الكتاب اجتهادا ليس يترك

لا أنكرن الذي اوليتني ابـدا   حتى اعد مع الهلكي اذا هلكوا

ان الخلافة لمـا أظعنت ظعنـت   عن اهل يثرب اذ غير الهدى سلكوا

صارت الـى اهلها منهم ووارثها   لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا

السافكي دمـه ظلمـا ومعصيـة   أي دم ـ لاهدوا ـ من غيهم سفكوا

والهاتكي ستر ذي حـق ومحرمة   فاي ستر علـى أشياعهم هتكوا ؟

والفاتحي باب قفل لا يزال بـه   قتل بقتل الى دهـر ومعترك

وقد كان الذي توقعه الشاعر حميد ، فقد فتح مقتل الخليفة عثمان بن عفان بابا للشر والنزاع والخلاف بين المسلمين ...

القاهرة **محمد عبد الغني حسن**

•

تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري

تأليف الدكتور محمد زغلول سلام ـ ٢٧٠ صفحة ـ منشورات دار المعارف بالقاهرة

يحاول المؤلف في هذا الكتاب ـ كما يقول ـ ان يستدرك ما فات من المحاولات السابقة من جمع شامل لتراث النقد العربي والتأريخ له منذ أقدم عصوره ..

وهو يصرح في المقدمة انه انتهج الـى جانب المنهج التاريخي التطوري منهجا تحليليا تكامليا ، يعرض للنوع الادبي وتناول النقاد له في الحقبة التي يتناولها .. وقد بدأ الكتاب بمقدمة لدراسات النقد والبلاغة العربية تناولت : الناقد والنقد عند العرب ، والمؤثرات في النقد ، والبلاغة مفهومها ومصطلحاتها ، ومعنى الفصاحة والبيان والبديع .

وقد كان المرجو في كتاب يعرض لتاريخ النقد العربي ان يبدأ بدراسة تاريخية لمصطلح « النقد » او يبين متى ظهرت هذه الكلمة بمعناها الادبي ولكن المؤلف يكتفي ببيان مفهوم النقد عند ابن سلام الجمحي وابن رشيق دون ان يعنى بما سبق ذلك من عصور ..

وبعد هذه المقدمة يتناول المؤلف ماهية الشعر وآراء النقاد فيه ، فيسير على نفس الطريق من اغفال ما قبل العصر العباسي في النقد ، فهو يبدأ بتعريف قدامة بن جعفر للشعر ، ثم الآمدي وغيره ..

ولا اريد من ذلك ان هناك تعاريف سابقة للشعر ، ولكن المؤكد ان هناك مفهوما للشعر عرفته العرب منذ العصر الجاهلي او ان هناك موضعا فنيا وضع العرب فيه الشعر ، وما دمنا نوقن ان النقد العربي قديم الجذور ، والكتاب يريد التأريخ له منذ اقدم عصوره فقد كان لا بد من الاشارة الى معنى الشعر عند العرب منذ صار فنا أدبيا ..

ولا ندري ، هل اراد المؤلف في هذا الفصل ان يعرض لماهية الشعر وآراء النقاد فيه عند العرب ، أم أنه يريد النقد الغربي الحديث ايضا؟

فهو في خلال عرضه لآراء نقاد العرب القدماء في الشعر يورد آراء للنقاد الاوروبيين ، كنقله عن « جويو » وسبنسر ، وفولتير وكولردج ، ثم لا يلبث ان يعود الى نقاد العرب ، دون موازنة او ربط بين هذا وذاك.

وقد كان المنهج التاريخي التطوري ـ الذي أعلن المؤلف انه التزمه في دراسته يقضي بعرض هذه الافكار وفق أصالتها وتطورها ، ولكن المؤلف لا يجد مانعا من عرض آراء نقاد العرب ، ثم العودة الى آراء ارسطو او عرض اراء المحدثين من الاوروبيين ثم الرجوع الى اراء العرب.

وبعد هذا التمهيد يدخل المؤلف مباشرة في قضايا النقد تحت عنوان : « من قضايا النقد » فيعرض لطبقات الشعراء ، ثم اللفظ والمعنى ، ثم السرقات ولا نفهم لهذا الترتيب من معنى ، فهو ليس مرتبطا بالعصور ولا مبنيا على جانب التطور ، فالسرقات قضية نقدية عرفت في كل عصور النقد العربي من الجاهلية حتى اليوم ، وان كان المؤلف لا يحاول التحديد الزمني في شيء من ذلك ، ففي حديثه عن الطبقات يقول : « وكانت تهيمن على جو النقد تقريبا فبيل عصر التدوين في القرن الثاني الهجري » مع انه ينقل بعد ذلك عن لبيد رأيه في أشعر الناس ، ولبيد شاعر مخضرم ، ثم يقول : « وقد جمعت هذه الاحكام وامثالها اواخر العصر الاموي او في الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة وتداولها الرواة من بعد ، وسجلت في كتب النوادر واخبار الشعر والشعراء منذ القرن الثالث الهجري » .

وقد كان عليه ما دام في صدد التاريخ لقضايا النقد ان يوضح لنا تطور هذه القضية او يسجل لنا التتبع الدقيق لورودها في كتب النقد القديمة حتى نستطيع تمثلها ونحيط بتطورها . اما هذه الاحكام التقريبية الشائعة ، فليست من سبيل تاريخ النقد .

وان كان المؤلف يعود بعد ذلك الى طبقات الشعراء ، فيعيد بعض قوله السابق ، ولكنه يشير الى ان اول من حاول جمع الشعراء الفحول في كتاب من علماء القرن الثاني ابن سلام والاصمعي ، في كتابيهما : « طبقات فحول الشعراء » وفحولة الشعراء ، ويعرض بالدراسة للكتاب الاول فقط ، مع انه يقول : « .. ولهذا نبدأ بالحديث عنه » فكان مقتضى ذلك ان سيتناول كتاب الاصمعي ايضا ..

ولا نجد في الكتاب كله فصلا يخلص لتاريخ النقد غير هذا الفصل الذي جعل عنوانه « دراسات نقد الشعر ومناهجها قبل ابن سلام » وفيه يشير بايجاز الى النقد في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وبني امية ، ثم الى الحركة العلمية واثرها في النقد في القرن الثاني ثم يشير الى مقاييس الشعر والشعراء على وجه الاجمال .

وبعد ذلك يسير الكتاب حتى نهايته على استعراض كتب النقد في القرنين الثالث والرابع والوقوف عند بعض آرائها واتجاهاتها النقدية ، فيعرض كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ثم البديع في نقد الشعر لابن المعتز ، ثم طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وعيار الشعر لابن طباطبا ـ وهو كما يقول المؤلف يسبق عرضه ـ والموازنة للآمدي ، ثم يعرض للدراسات التي قامت حول ابي الطيب المتنبي ، وهي الرسالة الحاتمية في مآخذ المتنبي ، والكشف عن مساوىء المتنبي للصاحب بن عباد ، والمنصف في الدلالة على سرقات المتنبي لابن وكيع التنيسي والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني .

ويعود بعد ذلك لدراسات اخرى في نقد الشعر ، فيشير الى ما في كتاب الكامل للمبرد من آراء نقدية ، والى كتاب التشبيهات لابن ابي عون وديوان المعاني لابي هلال والموشح للمرزباني ثم صنعة الشعر للغانمي ، وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري .

ولا نرى مبررا لتجاهل المؤلف لكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر مع انه يشير اليه في مكتبة النقد في القرن الرابع في نهاية الكتاب. مع ان دراسة كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر كانت من الضرورة بمكان لما يمثله قدامة من تأثر بالنقد اليوناني ، كما يقولون ، وكنا نود ان يوضح المؤلف قضية اتصال النقد العربي بالنقد اليوناني ويفصل فيها ، من خلال دراسته لكتاب قدامة ، بدلا من هذه الاشارات الموجزة التي ينقلها عن بعض الدارسين المعاصرين .

ويختم المؤلف كتابه دون خاتمة ، ودون استعراض لمسار النقد العربي من نشأته حتى القرن الرابع ليخرج بنتائج من دراسته ويوضح « خط التطور » الذي يؤكد في المقدمة انه واضح تماما في هذا الكتاب!

ولا نأخذ على المؤلف بعد ذلك غير اهماله الاشارة الى المراجع في نقوله ، في اكثر الاحيان ، وقد نجد في الصفحة الواحدة عدة نقول يشير الى مصدر بعضها ولا يشير الى مصدر الباقي ، مع ان الدراسة الجامعية المتخصصة تلتزم الاشارة الدقيقة الى المصدر والصفحة وكذلك فعل في مراجع الكتاب فلم يشر بدقة الى الطبعات ، وبعض هذه المراجع مطبوع اكثر من طبعة بعضها محقق وبعضها غير محقق .

ولا ننكر على المؤلف جهده الذي بذله في دراسة هذه الكتب النقدية ، فهو فائدة محققة ، لكننا نريد منه في الطبعة التالية ان يتضح المنهج التاريخي في الكتاب وان يهتم بتحديد المراحل وابراز الاتجاهات .

القاهرة — **مصطفى عبد الواحد**

ماجستير في الادب والنقد

•

شعراء من كربلاء

من القرن السابع الهجري حتى مطلع القرن الرابع عشر

دراسات أدبية ـ تأليف سلمان هادي الطعمة ـ ٣٦٨ صفحة ـ مطبعة الاداب في النجف الاشرف

تتمتع مدينة كربلاء بتاريخ حافل بالعلوم والاداب بوصفها ملتقى ارباب الرأي والفكر ومجمع الاعلام والفضلاء .. وظل هذا التاريخ شاهدا لنخبة ممتازة أضافت الى تراثنا العربي تراثا لولا غوائل الدهر لبقي ساطعا امام الدارسين والمتتبعين .. ان الكشف عن التراث الدفين مهمة تتطلب الكثير من المتاعب والمشقات من أجل رفع غبار النسيان والاهمال عن أسماء الشعراء وهذا ما لاقاه صديقنا الكاتب الاستاذ سلمان هادي الطعمة عند تأليفه دراساته « شعراء من كربلاء » .

لقد كانت مصادر دراساته تعتمد على دواوين بعض الشعراء وهي بخطوط أصحابها بالاضافة الى اقتباسه بعض المعلومات من الصحف القديمة الصادرة قبل وبعد الحرب العالمية الاولى وبعض مصادر اخرى لا تتجاوز أصابع اليد .. ومما يؤسف له بان هناك كثيرا من الشعراء ـ كما يقول المؤلف في المقدمة ـ لا يزالون قيد الضياع لكثرة الحوادث المؤلمة الحزينة التي مرت على المدينة في عهود الظلام من ثورات وحروب واوبئة وفوضى ورعب ومطاردة حتى ان بعض الشعراء لم يعرف له مصير امثال الشيوخ يوسف بريطم واسحق المؤمن وموسى الاصفر .. من خلال هذه الحوادث استطاع المؤلف ان يخرج بهذا السفر النفيس الذي يستعرض فيه واحدا وخمسين شاعرا من القرن السابع الهجري حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري وكلهم من الشيوخ الاجلاء والسادة الافاضل .

يتناول المؤلف التعريف بكل شاعر مع مقتطفات من شعره الى ذكر اثاره اما مصادر دراستهم فتكاد تتفق لانها على أشياخ عصرهم وعلماء زمانهم ثم عن طريق المجالس وحضور المناظرات والمناقشات التي كانت تدور آنئذ .

كان قسم كبير من هؤلاء الشعراء قد اهملوا تدوين شعرهم او نشره بين الناس وكان عامل الفقر يلعب دوره في تنقل الشاعر من بلد

الى اخر سعيا وراء الرزق كما كانت الحوادث الرهيبة تترصد أنفاسه وحركاته كل هذه الاسباب مجتمعة دعت الى ضياع شخصية الشاعر وضياع هذا التراث الادبي من تاريخ الادب في العراق ومما يدعو الى الاسى ان يهدي العلامة السيد عبد الحسين آل طعمة ديوان الشاعر فضولي البغدادي بنسخته الخطية النفيسة الى الوالي جمال باشا عندما زار كربلاء عام ١٣٢٩ هـ .. ومن يدري فلعل الباشا أهداه بدوره الى مرافقه الذي لا يقيم جملة ولو بسيطة باللهجة العامية الدارجة !!

ولبعض هؤلاء الشعراء نسخ خطية من دواوينهم ترقد في هدأة من ضجيج المطابع يكاد يغمرها النسيان وتتفاقم عليها مراجل الازمان امثال دواوين : محسن ابو الحب ومحمد مهدي القزويني وعبد الوهاب آل الوهاب وعبد الكريم النايف وحسين العلوي ومحمد صالح القزويني وعباس أبو الطوس وابراهيم العلوي .

ومن بين هؤلاء وهؤلاء الشاعر الشاب المنكود الحظ الذي ولد عام ١٩٣٠ وتوفي عام ١٩٥٨ وهو في عمر الورود « عباس ابو الطوس » صاحب ديوان « هدير الشلال » غير المطبوع شاعر ابتلاه الله بالفقر والمرض صور آلامه في قصيدة رائعة .. وهي بعنوان « الداء » يقول فيها :

أأظل أبحث عن أمان بعثرتها النائبات
وسعادة سحقت لطافتها الليالي الغامضات
وملاعب عصف الفناء بها وكفنها الممات
لم تبق غير الذكريات وهل تفيد الذكريات ؟

كم ليلة قد بت منطويا على نفسي السجينه
أشكو همومي للنجوم وحر آلامي الدفينه
وأصب في سمع الزمان أرق أنغامي الحزينه
وأحن وجدا كلما خطر النسيم على المدينه

بقيت هناك ملاحظات حول الكتاب وهي : بان المؤلف يذكر في الصحيفة ٢٤ خبر استشهاد نصر الله الحائري كما ذكره في الصحيفة ٣٢ ولكنه لم يذكر السبب المباشر .. كما وردت عدة استدراكات في الكتاب منها في صحيفة ٣١ ، ٥٢ ، ٣٥٢ الى ٣٥٧ وكان ينبغي ان تكون في مواضعها .. الا ان الكاتب معذور في ذلك لانها جاءت متأخرة بعد التحقيق والتدقيق .. اما الاغلاط المطبعية فقد جاوزت الورقتين وهذا أمر سوف لا نلاحظه مكررا في الطبعة الثانية ان شاء الله وهذا غير بعيد على مؤلف كتاب تراث كربلاء .

الكوت ـ العراق **كاظم محمد حسين**

•

القمح والعوسج

تاليف عبد الجبار داود البصري ـ ١٩٩ صفحة ـ من الحجم الكبير ـ مطبعة الجمهورية ببغداد

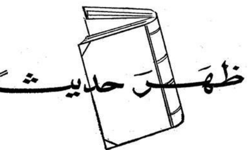
ان كلمتي « القمح والعوسج » تختصران ابرز مفاهيم المذهب النقدي الذي يحظى بشعبية اكثر من غيره .. اي انهما يفترضان ان يكون النقد عملية ابراز المحاسن والثراء والخصب في الاثر الادبي الى جانب ابراز المعايب والجفاف والظمأ . هكذا يبدأ الاستاذ البصري مقدمة كتابه هذا معللا كلمتي « القمح والعوسج » .

والكتاب يحتوي على مجموعة من المقالات في النقد وفق في بعضها وقصر في البعض الاخر . واذا كان الادب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية بارزة وبما يلقيه من ضوئه الخالد على جوانبها المظلمة فان النقد هو الجانب الاخر لصورة الحياة بتصحيحه لبعض اجزاء الصورة او تكميله لها او توجيهه للفنان نفسه عرض صورته على الناس كما يقول الدكتور ماهر حسن فهمي .

وعندما يطلع القارىء على النقد فانه يضم الى تجاربه تجارب اخرى توسع دائرة معلوماته . والنقد يأخذ بيد الادباء وينير لهم الطريق وكثيرا ما نرى شعراء يحيدون عن منهجهم ويغيرون طريقتهم تحت تأثير حركة النقد ، وكثيرا ما سلط النقد انواره الكشافة على عبقرية فنان مغمور فاصبح من المشهورين الذين يشار اليهم بالبنان وتشرئب نحوهم الاعناق . فالنقد صورة لازمة للاديب وربما يتطور النقد او تتبدل مقاييسه او تختلف مفاهيمه ولكنه يبقى دائما وابدا موجها مهما تطورت الظروف وتبدلت الاحوال .

يقول المؤلف في صحيفة (١٨) عن الشعر الحر (.. الشعر الحر فهو لا يهدم التراث العربي في الشعر ولكنه يكمله) بينما يقول في صحيفة (١٩) ما يناقض قوله هذا « .. وبالرغم من ظهور ابعاده المستحدثة على سطح الحياة الاجتماعية فان وراء تغيراتها قوة خفية تعمل باستمرار والشعر الحر عادة مستحدثة ظهرت على سطح المجتمع العربي ، ولكن الدراسة العميقة لاصولها واسبابها تثبت انها جزء من التمزق الكبير الذي اصاب الثقافة العربية نتيجة الاتصال بالغرب ، وانها تدل على وجود قوى اجتماعية هائلة كانت تعمل لتغيير وجوه المجتمع » .

في صحيفة (٤٤) يتكلم المؤلف عن النازحين من القرى فيقول : « انهم يحنون الى الماضي .. ويحبون كل ما يذكرهم به » ولا شك ان ابرز صور الريف في المجتمع العربي زراعة القمح ، والذي اراه خلاف



● جبران حيا وميتا – مجموعة تشتمل على مختارات مما كتب ورسم جبران خليل جبران ومما قيل فيه – قدم لها وعني بتاليفها واخراجها : حبيب مسعود – الطبعة الثانية – ٨٥٠ صفحة – مع عدة لوحات بريشة جبران – حجم كبير – اصدرته لجنة جبران الوطنية في بشري لبنان – دار الريحاني للطباعة والنشر ببيروت .

● الادب الشعبي ولغته – تاليف وليم صعب ٨٠ صفحة – منشورات مجلة البيدر ببيروت – مطبعة النجوى ببيروت .

● زوارق العبير – مجموعة شعرية – مصطفى الجوزو – ٢٠٠ صفحة مطبعة دار الكتب ببيروت .

● الفنان والتمثال – مسرحية – تاليف لويجي بيراندللو – ترجمة خليفة محمد التليسي – ١٦٨ صفحة – الكتاب ٤ في سلسلة الكتاب الليبي – منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب – مطابع وزارة الاعلام والثقافة بطرابلس ليبيا .

● النواعير – مجموعة خواطر وتعليقات – تاليف جبران مسوح – الغلاف بريشة الفنان ارتو – الجزء الاول – ١٣٨ صفحة – منشورات دار الرائد في حلب – مطبعة ميتم الروم الكاثوليك في حلب .

● احلام الزورق الغريق – مجموعة شعرية – عبد القادر حميدة – مصمم الغلاف زهران سلامة – الرسوم الداخلية لنبيل تاج – ١٥٢ صفحة – منشورات دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

● قاموس احياء الالفاظ – تقديم وتحقيق وشرح اسامة الطيبي – الجزء الاول – ١٢٤ صفحة – حجم كبير – دار الوفاء للطباعة والنشر بدمشق .

● تحفة اولي الالباب في صناعة الخط والكتاب – تاليف عبد الرحمن يوسف بن الصايغ – حققها وقدم لها وعلق عليها هلال ناجي – ١٢٦ صفحة – دار بوسلامة للطباعة والنشر بتونس .

● فلسطين – افتتاحيات نشرت في جريدة « الحياة » قبل النكسة واثناءها وبعدها – تاليف كامل مروة – ١٢٨ صفحة – منشورات جريدة الحياة ببيروت .

● اصداف الصمت – مجموعة شعرية – رياض فاخوري – ١٠٠ صفحة – مطابع الخال اخوان ببيروت .

● الحياة والشباب : كيف تعيش طويلا وتظل شابا – تاليف الدكتور اريك تريمر – نقله الى العربية محمد اديب العامري – ١٦٠ صفحة – حجم كبير – منشورات عويدات ببيروت – مطابع منشورات عويدات ببيروت .

● الفزاة – تاليف اندريه مالرو – ترجمة فايز كم نقش – ٢٢٢ صفحة – حجم كبير – منشورات عويدات ببيروت – مطابع منشورات عويدات ببيروت .

● العبقرية المنسية : كامل الصباح – تاليف يوسف مروة – تقديم سعيد عقل – ١٥٢ صفحة – منشورات مروة العلمية ببيروت – مطبعة فقالي ببيروت .

● الحان عربية على اوتار من الغرب – تاليف فؤاد الكعبازي – ١٧٢ صفحة – حجم كبير – منشورات صحافيا ببيروت – مطبعة النجوى ببيروت .

● غزليات من الفرات – تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية – ١١٦ صفحة – حجم كبير – الكتاب ١٨ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات – المطبعة السليمية بدير الزور سورية .

● ورد واشواك – مجموعة شعرية – عبد المجيد اليربوعي – ٦٢ صفحة – منشورات ادارة الفنون والثقافة بليبيا – مطابع وزارة الاعلام والثقافة بطرابلس ليبيا .

● معركتنا العربية في مواجهة الاستعمار والصهيونية – تاليف عبد الكريم غلاب ومحمد العربي المساري وعبد الجبار السحيمي – الجزء الاول – ١٨٨ صفحة – سلسلة كتاب « العلم » – مطبعة الرسالة بالرباط المغرب .

ما يراه المؤلف ، اذ ليس في كل لحظة يجد الانسان نفسه في حاجة لان يقول الشعر ، ولا في كل حالة يحس الدافع اليه . هناك تجارب شعورية معينة تثير انفعالات شعورية خاصة لا يستنفذها الا التعبير الشعري ، وهؤلاء الشعراء الذين عناهم الاستاذ البصري لمع نجمهم في الاربعينيات بعد الحرب العالمية الثانية ولا شك انهم قد عانوا ما عاناه كافة افراد الشعب للحصول على الخبز حيث التجمهر على المخابز والافران والتدافع بالمناكب وهذا هو كان له التاثير الاكبر في اشعارهم وقديما قال الشاعر العربي :

واذا غلاء شيء علي تركته ... فيكون ارخص ما يكون اذا غلا
الا الدقيق فانه قوت لنا ... فاذا غلا يوما فقد نزل البلا

جاء في الكتاب بعض التكرار فمن ذلك على سبيل المثال في صحيفة (١٠٦)

باسمكم يا اخوتي غنيت في ليل التتار

تكرر في صحيفة (١٠٨) وفي صحيفة (١٢٥) وفق الاستاذ البصري في نقد الشاعر حافظ جميل في لهبه المقفى الى ابعد حدود التوفيق مما يستاهل الثناء ويستوجب التقدير .

اما في نقده للمرحوم الاستاذ الشاعر عبد القادر رشيد الناصري فلم يوفق كثيرا وقد جانب جادة الصواب فمن ذلك ما جاء في صحيفة (١٤٦) حيث ذكر وجود تناقض في قصيدة الناصري قائلا ... فهل يبقى الهلال الى اخر الليل والحقيقة ان القمر يظهر على شكل هلال في التربيع الثاني وقبيل ان يدخل في المحاق .

والحقيقة ان الناصري من اولئك الشعراء الذين ينتسبون في الواقع الى كل قطر والى الانسانية جمعاء ، وقصائده كلها تنبض بحرارة وبعذوبة غنائية فريدة لا نجدها في الشعر العراقي التقليدي او الكلاسيكي كشعر الرصافي كما يقول الدكتور احمد زكي ابو شادي (قضايا الشعر المعاصر صحيفة ٢٠٠) :

ان شعر الاستاذ الناصري ينبض بالحركة ويفيض بالطاقة الشعورية فيستهوي الالباب ويأخذ بمجامع القلوب لما فيه من ايقاع قوي متسق ومن صور وظلال وحلاوة جرس .

وفي الختام لا يسعني الا ان اشيد بالجهود التي بذلها الاستاذ عبد الجبار داود البصري في كتابه القيم هذا الذي ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه واتمنى له مزيدا من التقدم في عالم النقد ولمؤلفاته الرواج والازدهار .

بغداد — عبد الخالق عبد الرحمن



المؤتمر السادس للدراسات الاسبانية العربية في قرطبة

بقلم عيسى الناعوري

في قرطبة الجميلة ، عاصمة الفكر العربي الاندلسي ، وعلى ضفاف نهرها الشهير المعروف باسم « الوادي الكبير » – أو « غواد الكبير » كما يدعونه اليوم بالاسبانية – عقد المؤتمر السادس للدراسات الاسبانية العربية من صباح يوم الاثنين ١٦ اكتوبر ١٩٦٧ الى عصر يوم الاثنين ٢٣ اكتوبر . وكأنما جاء هذا المؤتمر ليعيد الى المدينة الاندلسية العريقة مجدها الثقافي القديم ، ويؤكد أنها ما تزال الى اليوم مركزا ثقافيا جديرا بالاهتمام .

لقد كانت قرطبة أول مركز للثقافة العربية الاسلامية في الاندلس ، وظلت على ازدهارها الفكري طوال الفترة الاولى من الفتح الاسلامي . فلما قامت فتنة البربر في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري – قضت هذه الفتنة على ازدهار قرطبة وعمرانها ، فتفرق علماؤها وشعراؤها ومفكروها ، وانتشر ما كان في قصورها من نفائس الكتب ، فكان ذلك عامل نهضة وازدهار فكري في سائر أنحاء الاندلس .

في هذه المدينة ، وفي معاهد الثقافة فيها ، ظهر وتتلمذ عدد غفير من ابرز مفكري الاندلس وعلمائها وشعرائها ، من امثال : ابن زيدون ، وابن عبد ربه ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن شهيد ، وغيرهم .

وعلى الرغم من مرور الزمن ، ومن تحرر اسبانيا من كل حكم غريب ، فما زالت الامجاد العربية والاسلامية تتحدث الى الاجيال بلسان العظمة والخلود : من مسجدها المدهش المعجز ، ومن أسوارها وقصورها وقلاعها العربية التي لم تستطع أيدي الزمن ان تمتد اليها بسوء ، وكذلك من الزخارف والنقوش في بيوتها الحديثة التي ماتزال متأثرة بالطابع العربي الصرف . وما يزال الاسباني يعتز الى اليوم بتاريخ اندلسيته العربي ، وباعلام العرب والمسلمين الذين نشأوا على أرضه ، فهم جزء من تاريخه ، ومن امجاده الخالدة . وهو ماض في تكريم أولئك الاعلام العرب الاندلسيين : يقيم لهم التماثيل في الشوارع والساحات ، ويحتفل بذكراهم احتفالا يدل على الاعتزاز والفخر .

ولقد كان أحدث هذه التماثيل تمثال ابن رشد الذي اقيم في قرطبة ، والذي كان سببا من اسباب عقد مؤتمر الدراسات الاسبانية العربية السادس أخيرا في مدينة قرطبة .

ولست أريد أن اتحدث الان عن مدينة قرطبة التي يبلغ عدد سكانها اليوم مئتي الف نسمة ، ولا عن اثارها العربية والاسلامية الخالدة ، ولا عن نهرها العريض ، او عن مدينة الزهراء القريبة منها عند سفح جبل العروس ، بل اكتفي بالحديث عن مؤتمرها الثقافي الاخير .

هذا المؤتمر هو الحلقة السادسة من سلسلة الابحاث الاسبانية العربية ، وقد اشترك في الدعوة اليه : مدرستا الابحاث العربية في مدريد وغرناطة ، والمعهد الثقافي الاسباني العربي في مدريد ، ومعهد الدراسات الاسلامية في مدريد التابع للجمهورية العربية المتحدة . وقد عهد برئاسة المؤتمر الى المستشرق الاسباني لويس سيكودي لوثينا باريدس ، وعهد بسكرتيريته الى زميله المستشرق منويل أوكانيا خيمينس ، الاستاذ في معهد الدراسات العربية في مدريد .

ولم يكن المؤتمر هذه المرة مقتصرا على مجرد الابحاث في الفكر الاسباني العربي ، بل كان للفيلسوف العربي الاندلسي ابن رشد نصيبه الكبير من ابحاث المؤتمر ، وكان من الحوافز الرئيسية على عقد المؤتمر في قرطبة ، وذلك بمناسبة اقامة تمثال ضخم له في هذه المدينة . ولهذا كان عدد غير قليل من محاضرات المؤتمر يدور على ابن رشد ، وفلسفته ، واثاره الفكرية في العلوم ، وفي الفقه ، وعلى حياته كمفكر وسياسي وطبيب .

كانت حفلة الافتتاح في قاعة الفسيفساء في قصر الملوك المسيحيين . وقد افتتح المؤتمر رئيس بلدية قرطبة ، فالقى كلمة ترحيب بالوفود المشتركة فيه اعرب فيها عن اعتزازه واعتزاز قرطبة بعقد هذا المؤتمر فيها .

ثم كانت المحاضرة الاولى في القاعة عينها لرئيس المؤتمر الاستاذ لويس سيكودي لوثينا . وفي المساء نظمت للوفود جولة ليلية في احياء المدينة وحول اسوارها العربية .

في الايام التالية كانت الجلسات تعقد في قاعة نادي الصداقة ، وفي كل جلسة كانت تلقى اربع محاضرات أو خمس . واغلب المحاضرات القيت باللغة الاسبانية ، وواحدة منها بالايطالية ، وثلاث محاضرات بالفرنسية . أما اللغة العربية فقد القيت فيها اربع محاضرات فقط ، والذين القوها هم : عبد الله كنون (المغرب) وعيسى الناعوري (الاردن) ومحمد بالروين (ليبيا) وابه ولد انه (موريتانيا) . وهناك اثنان اخران من العرب القى احدهما محاضرته بالاسبانية ، وهو الدكتور خالد الصوفي (سوريا) والقى الثاني محاضرته بالفرنسية ، وهو سليمان مصطفى زبيس (تونس) . ولقد اشترك في المؤتمر عدد كبير من المستشرقين ، والى جانبهم عدة مندوبين من الاقطار العربية .

وكان بين المستشرقين بعض الفرنسيين ، والايطاليين ، والانجليز ، والالمان ، الى جانب الكثيرين من المستشرقين الاسبان .

كانت الجلسات تعقد في الساعة التاسعة صباحا ، وتستمر حتى الواحدة ، أو بعدها بقليل ، بعد الظهر . وفي المساء كانت تنظم للوفود حفلات استقبال ، أو ولائم كبيرة ، أو جولات الى هناك وهناك . ومن هذه الجولات واحدة في جامع قرطبة العجيب الخالد ، وأخرى الى قلعة الحرة والجسر الروماني على الوادي الكبير ، وثالثة الى مزرعة المتادور الشهير (القرطبي) أتيح لنا فيها أن نشهد مصارعة بسيطة مع ثلاثة عجول من عجول التدريب ، قام بها ثلاثة من الشبان العاملين تحت التدريب في مزرعة القرطبي . اما الزيارة الاخيرة فقد كانت الى اطلال مدينة الزهراء ، في سفح جبل العروس .

بعد ظهر يوم الاحد في ٢٢ – ١٠ – ١٩٦٧ عرض السفير الليبي في قاعة نادي الصداقة شريطا سياحيا ملونا عن ليبيا ، حضره رئيس البلدية وعدد من اعضاء الوفود ، كما حضره سكرتير السفارة السعودية وزميله سكرتير السفارة العراقية في مدريد . وفي نهاية العرض قدم سكرتير السفارة السعودية الى رئيس البلدية عباءة عربية والبسه اياها ، وقدمت انا ايضا اليه هدية عربية اردنية تتالف من شماغ أحمر وعقال ، والبسته اياها . ، وقد القى كلمة قصيرة ، وهو يرتدي هذه الملابس ، عبر فيها عن تقديره لهذه الهدايا العربية ، واعتباره اياها عربونا للصداقة المتينة التي تربط بين العرب واسبانيا .

وفي مساء ذلك اليوم عينه اقام رئيس البلدية حفلة عشاء كبرى تكريما للوفود ، وقد ذكر في الكلمة التي القاها على المائدة انه يعتز بانه يحمل اسما عربيا هو (دي قزمان) أي ابن قزمان . وابن قزمان هو اشهر زجال عربي عرفه تاريخ الاندلس العربية ، وكان من قرطبة .

في اخر يوم من أيام المؤتمر – الاثنين ٢٣ – ١٠ – ١٩٦٧ – عقدت الجلسة الاخيرة في نادي الصداقة . وعند الظهر انتقلت الوفود كلها الى الساحة التي اقيم فيها تمثال ابن رشد ، حيث جرى احتفال رسمي كبير – على الرغم من المطر – بازاحة الستار عن التمثال . وكان الاحتفال برئاسة رئيس البلدية ، وبحضور رجال الحكومة المحلية ، والسفير الليبي ، وممثلي السفارات السعودية ، والعراقية ، والموريتانية الموجودين . وقد عزفت فرقة موسيقى البلدية النشيد الوطني في بداية الاحتفال وفي ختامه ، والقى رئيس البلدية كلمة عن ابن رشد الفيلسوف والعالم العظيم ، واعرب عن اعتزاز قرطبة بان يكون ابن رشد احد ابنائها .

بعد الاحتفال انتقلت الوفود الى قصر الملوك المسيحيين القريب ، لكي يكون ختام المؤتمر في قاعة الفسيفساء عينها التي تم فيها افتتاحه . وكانت الجلسة الختامية برئاسة رئيس البلدية ، وبحضور كل من اشتركوا معه في تدشين التمثال من الرسميين . واستمعت الوفود الى اخر محاضرات المؤتمر وكانت للدكتور حسين مؤنس . فلما انتهى منها نهض رئيس البلدية ، وشكر الوفود والقائمين على المؤتمر ، واعلن ختام اعمال المؤتمر رسميا .

هذه خلاصة موجزة لاعمال المؤتمر خلال الايام الثمانية التي عقد فيها . وانني لاعتقد انه كان ناجحا الى حد بعيد . واني لشديد الاعتزاز بانه كان لي شرف المشاركة فيه ، وتمثيل بلدي في مؤتمر يكرم فيه احد نوابغ امتي العربية العظام هو ابن رشد .

بعد ان انتهى مؤتمر قرطبة هذا أتاحت لي وزارة الاعلام والسياحة الاسبانية فرصة للقيام بجولة في ربوع الاندلس زرت فيها غرناطة ، وملقة ، واشبيلية ، كما زرت فيها طليطلة ، والاسكوريال ، وشاهدت الاثار العربية الخالدة التي تملأ النفس اعتزازا بالماضي العربي المجيد ، بمقدار ما تملأ النفس ألما لحاضر الامة العربية . وليس هذا مجال الحديث عن هذه الجولة الاندلسية .

عمان – الاردن

عيسى الناعوري

•

التعليم المهني واهميته بالنسبة للبنان

بقلم الدكتور جميل جبر

لقد اصبح للتعليم المهني ، في مختلف حقوله ، شأن بارز في عصرنا . ولا عجب فالتصنيع ميزة التطور في هذا الزمن . واكثر البلدان نموا هي اكثرها تصنيعا اي اكثرها استخداما للالات في اعمالها الانتاجية .

والتصنيع يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية : رأس المال ، العنصر البشري المهيأ والاسواق . وربما كان العنصر البشري المدرب للعمل تخطيطا وتوجيها وتنفيذا هو الاهم ، لان رأس المال يتوافر لكل مشروع يثبت مردوديته وقابليته للتقدم ولان الاسواق الخارجية تتأثر بالمنافسة التجارية نوعا وسعرا ، وللادارة دورها الكبير في تسهيل المهمة عن طريق الحماية في نقطة الانطلاق والمعاهدات الاقتصادية في سائر المراحل .

اما المادة الاولية او الخام فلا تبدو ، على اهميتها ، عنصرا رئيسيا بدليل ان الدول الصناعية الكبرى ، باستثناء الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، تعتمد على استيراد هذه المواد . فانكلترا التي اشتهرت بصناعة النسيج تستورد كل موادها الخام من الخارج ثم تصدرها ناجزة الصنع .

وفي هذه الوقائع رد على سؤال فيه شك بامكانية التصنيع في لبنان لقلة المواد الاولية فيه .

معلوم ان تربة اسرائيل ليست باغنى من تربة لبنان ومع هذا استطاعت ان تطور صناعتها وتصنيعها الزراعي الى مدى بعيد .

وقد علمتنا المحنة الاخيرة ان التفوق الصناعي عامل مهم في تقرير مصائر الشعوب فكيف السبيل للسير الصاعد في نهج تصنيعي يلائم مقتضياتنا الحياتية .

ان القضية بالنسبة الى لبنان هي قضية عنصر بشري متخصص ليس على مستوى المهندسين بل على مستوى ملاكات التنفيذ من معاوني مهندسين ورؤساء ورش ووكلاء وعمال مدربين ومزارعين مدربين ، اي على مستوى المتخرجين من مدارس التعليم المهني الذي يشمل الزراعة .

لا شك ان الاقبال على التعليم المهني آخذ بالازدياد لا سيما بعد ان انشأت الدولة بعض المدارس العصرية في مختلف المحافظات . لكن هذا الازدياد يبدو بطيئا بالنسبة للمتطلبات ، فهو ما زال عاجزا عن تلبية الحاجة الحاضرة فكيف لو تكاثف التصنيع ، وهو ما نرتجيه في تركيز اقتصادنا على قواعد ثابتة وفي اقامة بعض التوازن بين عناصر دخلنا القومي فنرفع معدل الصناعة المنخفض جدا (١٢٪) .

حسنات هذا التعليم

ومن حسنات التعليم المهني انه يخفف الضغط عن التعليم الثانوي والجامعي توجها الى المهن الحرة ، هذا التعليم الذي يهدد بازمة بطالة خطيرة ويجعل مردوده اقل من كلفته طارحا قضية الانفاق في سبيله على بساط البحث من حيث انتاجيته وجدواه .

الكثيرون من حملة البكالوريا يسعون الى وظيفة ادارية باجر شهري يقل عن اجر العامل الامي ومنهم من لا يحالفه الحظ فيبقى عالة على المجتمع . بينما العامل المهني المتخصص زراعيا او صناعيا يكسب ضعفي هذا الاجر ووكيل الورشة او معاون المهندس اضعافه فضلا عن ان هؤلاء لا يضطرون دائما بحكم اعمالهم الى السكن في المدن المكتظة بالموظفين نظرا لتمركز الادارات والمؤسسات الكبرى فيها ولا يتكبدون مصاريف باهظة للايجار اذ يقطنون الضواحي والقرى التي تقفر يوما

فيوما .

التعليم المهني يساعد اذن على نهضة القرية اللبنانية وقد يحل مشكلة انصاف المتعلمين وحتى خريجي الجامعات الفائضين عن حاجات البلاد . وفوق هذا يؤثر على التطور الاقتصادي وزيادة الدخل عن طريق تعزيز الصناعة والزراعة اللتين بدورهما تنميان التجارة والخدمات العامة .

وللتعليم الزراعي بما فيه تربية المواشي والدواجن اهميته الخاصة بالنسبة الى لبنان لان نصف سكانه يعيشون على الزراعة التي لا يكاد يتجاوز معدلها بالنسبة للدخل القومي العام ١٥٪ وقد كان هذا المعدل قبل ١٣ سنة حوالي ٢٠٪ .

وتعود ضآلة هذه النسبة الى قلة الاختصاص والدربة مما يجعل استثمار الارض زراعيا ادنى بكثير من حده الاقصى كما يهبط بمستوى النوعية في الانتاج . ولا تختلف الحال عن ذلك في تربية المواشي والدواجن . فحبذا لو نشأت في كل منطقة مدرسة زراعية وصناعية رسمية كانت ام خاصة ، تدرب على احدث الاساليب والوسائل . ولا نعلن سرا لو قلنا ان في اسرائيل مئة ومدرستين بين مهنية وزراعية تمول معظمها مؤسسات خاصة .

العمل اليدوي

يقال ان اللبناني لا يحب العمل اليدوي ويؤثر عليه العمل العقلي حتى لو نال منه نتيجة ادنى . والواقع ان الانسان ، بطبيعته ، عدو لما يجهل . والمسؤولية هنا تقع ، الى حد كبير ، على طريقة التعليم في المدارس العامة ، لان الطالب يكاد يجهل كل شيء عن الحرف والمهن والصناعات والزراعات والتربية الحيوانية في الصفوف الابتدائية والثانوية بينما البلدان المتطورة تدخل في برامجها التعليمية دروسا خاصة للتعريف والتحبيب بمختلف الحقول المهنية التي يمارس فيها العمل اليدوي فضلا عن المشاغل والمحترفات التي تجاور المدارس والتي يؤمها الطلاب على سبيل الهواية والاختبار فينمو فيهم الميل الى « القردحجية » Bricolage مرحلة التدرج الى المهن .

ثم ان التعليم عندنا ما زال نظريا في معظمه بينما هو في المفهوم العصري يجري اكثره في المختبر وفي قلب الطبيعة فيفسح للطالب مجال ممارسة العمل اليدوي فيحبه ويحترمه .

بعد هذه المرحلة التمهيدية التي يتعرف فيها الطالب من قريب الى سائر المهن يبدأ طور التوجيه المهني والاختيار بواسطة اساليب البسيكوتكنيك والسبر النفساني فينصرف بعضهم حسب كفاءاته الى التعليم الجامعي والبعض الاخر الى المهن التي قد يبرع فيها .

وفي سبيل اثارة نهضة فعالة في التعليم المهني لا بد من تضافر جهود الدولة والبلديات والمؤسسات الخاصة بحيث تنشأ المدارس الاولية بعد الشهادة الابتدائية ، والثانوية بعد الشهادة التكميلية التي تعطي بكالوريا تقنية .

ان شأن التعليم المهني خطير بالنسبة للبنان ولا سيما في هذه المرحلة التي تتوثب فيها البلدان العربية جمعاء الى النهوض العلمي والتقني على اسس وظيفية حديثة تلبي مقتضيات التطور .

جميل جبر

•

تمويل التعليم في لبنان

من النتائج المباشرة للابطاء في وضع خطة تنمية اقتصادية واجتماعية طويلة المدى في لبنان ، اننا لا نملك بعد خطة تربوية جديرة بهذا الاسم . فالخطة التربوية توضع في ضوء الخطة الاقتصادية والاجتماعية ، ومن الاهداف الوطنية في الانتاج والتوزيع تنسحب اهداف النظام التعليمي وتتحدد حاجات البلد لاعداد السكان في كل مرحلة من مراحل التعليم وفي كل نوع من انواع الكفاءات التي ينتجها النظام التعليمي . وتكون كلفة الخطة التربوية هي قيمة الانفاق اللازم لتأمين تلك الحاجات .

وفي غياب الخطة التربوية ، يمكن اعتبار الانفاق الفعلي على التعليم مقدار ما يبذل من جهد على التعليم . فقد بلغت اعتمادات وزارة التربية الوطنية في مشروع الموازنة الاخير حوالي ١٠٥ مليون ليرة ، اي ما يصل الى حوالي ١٥ بالمئة من مجموع الموازنة . وتعتبر هذه النسبة من اعلى النسب في العالم كما يتبين من الجدول التالي المأخوذ من بيان المكتب الدولي للتربية في جنيف عن النسبة المئوية المخصصة للتعليم في موازنات بعض الدول في السنوات الاخيرة :

سوريا	١٨ ٪	افغانستان	١٥ ٪
مصر	١٣	لبنان	١٥
تركيا	١١	روديسيا	١١
اليابان	١٠	السويد	٩
بلجيكا	٨	اسبانيا	٨
فرنسا	٨	يوغسلافيا	٨
بريطانيا	٦	الولايات المتحدة	٢

ويجدر بالذكر ان هذه النسب قد تؤدي الى الخطأ

اذا اعتبرت وحدها ، لان الانفاق على التعليم لا يقتصر على ما يخصص في موازنة الدولة العامة في كثير منها ، بل يتعداه الى ما يخصص في موازنات الادارات المحلية في بعضها والى انفاق القطاع الخاص في معظمها . لذلك قد تكون نسبة الانفاق العام والخاص الى الدخل الوطني اكثر صدقا في تمثيل الجهد الاجمالي على التعليم . ولا تتوفر لدينا احصاءات دقيقة عن انفاق القطاع الخاص على التعليم في لبنان . ولكن بعض الارقام قد تمكننا من الوصول الى تخمين لـه .

فقد بلغ التوزيع التقريبي للتلامذة والطلاب بين مدارس ومؤسسات القطاع العام ومدارس ومؤسسات القطاع الخاص ما يلي :

	قطاع عام	قطاع خاص
الابتدائي على انواعه	١٨٠ر٠٠٠	١٩٠ر٠٠٠
الثانوي	١١ر٠٠٠	٦٥ر٠٠٠
الجامعي	٦ر٠٠٠	١٢ر٠٠٠
	١٩٧ر٠٠٠	٢٦٧ر٠٠٠

فاذا اخذنا بعين الاعتبار ما يلي :

ــ ان كلفة التلميذ الابتدائي في القطاع الخاص اقل بكثير من كلفة التلميذ الابتدائي في القطاع العام .

ــ ان التعليم الجامعي في المؤسسات العامة لايشتمل على الطلبات ذات التكاليف الباهظة (الطب ، الهندسة ...)

امكننا التخمين بان انفاق القطاع الخاص على التعليم في لبنان يفوق انفاق القطاع العام (١٠٥ مليون ليرة) وقد يبلغ ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ مليون ليرة في السنة . وهذا ما يجعل مجمل الانفاق على التعليم في لبنان (حوالي ٢٥٠ مليون ليرة) يبلغ حوالي ٨ الى ٩ بالمئة من الدخل الوطني . وهي نسبة مرتفعة جداً ، قد تكون بين اعلى النسب في العالم . كما يظهر من الجدول التالي الذي يبين النسبة المئوية المخصصة للتعليم من الدخل الوطني في بعض البلدان :

سوريا	٣ ٪	بريطانيا	٣ ٪
مصر	٢ر٥	بلجيكا	٣
تركيا	٢	اسبانيا	١
اليابان	٤ر٥	فرنسا	٢ر٥
السويد	٣ر٥	الولايات المتحدة	٣

ويجب الا تكون هذه النسبة المرتفعة من الدخل الوطني التي ننفقها على التعليم سببا للتمادي في الرضى عن النفس ، فكلنا يعرف اننا ما زلنا بعيدين عن الوصول الى كل غاياتنا من نظامنا التعليمي ، وقد يكون تفسير ارتفاع النسبة في احد الاسباب التالية :

اولا ــ تقدير منخفض للدخل الوطني .

ثانيا ــ ارتفاع في كلفة التعليم في لبنان نرى بعض مظاهره في فتح مدارس كثيرة تعجز عن اجتذاب العدد الملحوظ لها من التلاميذ ، وفي تراكم اعداد كبيرة من المعلمين في مناطق محدودة ، وفي الايجارات العالية التي تدفع دون النظر الى كلفة الخدمة الحقيقية ولاعتبارات غير تربوية .

ثالثا ــ عدد السكان قد يكون اقل من العدد الامثل بالنسبة لكلفة التعليم ، مما يزيد كلفة التجهيزات الاساسية التي يضطر الى حملها النظام التعليمي ويرفع كلفة تعليم الفرد .

ورغم هذه الكلفة المرتفعة للتعليم في لبنان ، فانه يواجه كثيرا من المشاكل يقتضي حلها انفاقا اكبر . فوزارة التربية الوطنية لا تكتفي بموازنتها التي تتزايد بمعدل يقرب من ١٠ بالمئة في السنة ، وتطلب باستمرار زيادة اعتماداتها حتى بوسائل غير طبيعية مثل (رسم العلم) الذي يتردد الحديث عنه بين فترة واخرى من اجل تحقيق مشروعين اثنين من مشاريعها : تعميم التعليم الابتدائي ونشر التعليم الثانوي .

والواقع ان لبنان ، شأن معظم البلدان النامية ، يواجه مشكلات متعددة تحتاج الى تمويل ، ويتعين عليه حلها في السنوات القادمة . من اهم هذه المشاكل تعميم التعليم الابتدائي المجاني ، زيادة سنوات التعليم الالزامي، تحسين نوعية التعليم في المراحل التكميلية والثانوية ، زيادة الاهتمام بالتعليم الفني والمهني (صناعي ، تجاري، زراعي ، سياحي) التوسع في التعليم العالي وفق حاجات الانماء الاقتصادي والاجتماعي ، اعداد المعلمين والمعلمات ، العناية بالبحوث والدراسات التربوية ، تشجيع البحث العلمي .

ونحن نعلم ان هذه المهام ذات بعدين : الاول افقي يتوقف على ازدياد عدد السكان الذي ينتج زيادة طبيعية في عدد الاولاد في السن الدراسية تبلغ حوالي عشرة الاف ولد في السنة . والثاني عامودي يتوقف على نوعية التعليم الذي نريده لابنائنا في مراحله الابتدائية والثانوية والجامعية ، ويتحدد الى مدى كبير بالتحدي الذي نجابهه من عدو يتميز بالتفوق في التجهيز البشري ، وبالتطلع الحضاري الطموح الذي نتميز به .

وهذا ما يجعل عبء التمويل في حقل التعليم اكبر ويتطلب اعادة النظر في النظام التربوي في ضوء الاعتبارات التالية :

اولا ــ تلاؤم النظام التربوي مع اهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ثانيا ــ القضاء على كل انفاق غير مجز ، بحيث لا تحمل مواردنا كلفة اكبر من الكلفة اللازمة ولا تصل الى مردود اقل من المردود المرغوب .

استفيدوا الآن من

التعرفة العائلية

الخاصة في رحلاتكم في الشرق الاوسط

تخفيض ٥٠٪



يمنح هذا التخفيض بالشروط الآتية :

١ – يجب ان تتم الرحلة بكاملها بالدرجة السياحية وفي الحدود الجغرافية لمنطقة الشرق الاوسط (البحرين والعراق والاردن والكويت ولبنان وقطر والمملكة العربية السعودية والسودان وسوريا والجمهورية العربية المتحدة واليمن).

٢ – يجب ان يدفع الزوج (او الزوجة) بصفته رب العائلة التعرفة العادية ذهابا وايابا بالدرجة السياحية.

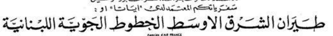
٣ – الزوجة (او الزوج حسب الحالة) المرافقة والاولاد من ١٢ الى ٢٦ سنة يدفعون ٥٠ ٪ فقط من التعرفة العادية الكاملة ذهابا وايابا بالدرجة السياحية.

٤ – يجب على جميع افراد العائلة السفر معا طوال الرحلة. فاذا تعذر ذلك بسبب عدم وجود اماكن في الطائرة، وجب على الافراد المتخلفين من العائلة المبادرة الى السفر باول طائرة لاحقة تابعة لأية شركة طيران تتوفر فيها الاماكن.

٥ – يجب ان تتم الرحلة بأكملها خلال المدة من ١٥ تشرين الاول الى ١٥ آذار. يحق لرب العائلة وحده استعمال قسيمة العودة من تذكرته خلال مدة سريان مفعولها العادية.

طيران الشرق الاوسط الخطوط الجوية اللبنانية يقدم لكم كل اسبوع ٥٠٠٠ مقعد على متن طائراته من بيروت الى بلدان الشرق الاوسط .

للاستعلامات وحجز التذاكر خابروا وكيل سفرياتكم المعتمد لدى "اياتا" او :



MEA

مكتب الحجز مفتوح ليلاً ونهاراً - تلفون ٢٩٢٢٢٠ (١٠ خطوط)

مكاتب بيع التذاكر : باب ادريس - تلفون ٢٩٢٤٠٠ (٢٠ خطا) - يمكن شحن البضائع على جميع الخطوط